

روايات الجيل الرومانسية

تأليف
مجدي صابر

قلبي يناديك



روايات الجيل الرومانسيّة ٢٤

قلبي يناديك

تأليف
مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

الشريك العملاق

انهمك «علاء» في وضع الخطوط الأخيرة للوحة الهندسية أمامه وقد بدا عليه الاستغراق التام، وعيناه الذكيتان تتابعان في دقة الخطوط الماهرة التي راح يخطها فوق اللوحة أمامه.

وأفاق على صوت صديقه «مؤنس» وهو يقول له: ألا تزال تعمل في إنهاء لوحة التصميم حتى الآن.. لقد تجاوزت الساعة السابعة مساء.

أجابه «علاء» وهو يلقي على اللوحة نظرة متفحصة:

ـ سوف أنهيها خلال دقائق.

مطَّ «مؤنس» شفتيه دون اهتمام قائلا:

ـ من يراك وأنت تعمل بكل هذا الجد والإخلاص يظن أنك صاحب الشركة، فحتى المهندس «حسني» صاحبها لا يبقى حتى هذا الوقت في مكتبه.

استدار «علاء» في اهتمام تجاه صديقه قائلا:

ـ ولكنه باق اليوم.. وهناك أقاويل كثيرة في الشركة عن انتظاره لشخصية مهمة.

تساءل «مؤنس» في مكر:

ـ وهل تعرف من ينتظر؟

هز «علاء» كتفيه وعاود انشغاله بعمله قائلا:

ـ لا.. ولا يهمني..

أجابه «مؤنس» في لهجة خاصة:

ـ بالعكس.. إن هذا الأمر يهمك جدا.

توقف «علاء» عن رسم الخطوط الدقيقة، والتفت إلى صديقه متسائلا بدهشة:

ولماذا يهمني هذا الأمر بالذات؟

أجابه «مؤنس» بنفس اللهجة:

ـ لأن ذلك الشخص الذي ينتظره المهندس «حسني» هو مدير الشئون القانونية بشركة المقاولات العربية المتحدة.

تعقد حاجبا «علاء» وهو يقول في اهتمام:

ـ شركة المقاولات العربية المتحدة.. لقد سمعت عن هذا الاسم من قبل.

هتف «مؤنس» مستنكرا:

ـ سمعت عن الاسم فقط.. يبدو أنك لا تعيش في عالمنا ولا تشاهد إعلانات التلفزيون الضخمة، والجرائد كذلك، عن هذه الشركة وإنجازاتها وحجم أعمالها الذي تجاوز المائة مليون جنيه.

ومال على صديقه كأنه سيدلى إليه بسر خطير وهمس قائلا:

يقولون إن صاحبة شركة المقاولات العربية ترغب في الدخول مع شركتنا كشريك في مشروع الصالة المغطاة الذي وقع الاختيار على شركتنا لتنفيذه.. ولم تستطع البدء فيه حتى الآن لقلة السيولة المالية وسوف تكون صفقة رائعة!

بانت خيبة الأمل على «علاء» وهو يقول:

ـ بل أعتقد أنها ستكون صفقة خاسرة.. فمثل هذه الشركة الضخمة سوف تبتلع شركتنا تماما ولن تترك منها ولا حتى العظم.. وإذا سألني المهندس «حسني» رأيي في ذلك فسأخبره به.

رفع «مؤنس» كتفيه لأعلى في لهجة تمثيلية قائلا:

- حمدا لله أنه لم يسألك عن رأيك.. أنت هكذا تخشى من أي جديد حتى لو كان أمرا أقرب إلى الأحلام.. ألا تعرف أنك بصفتك المهندس التنفيذي الأول لشركتنا، فلا شك أنه عندما تقع عليك عينا صاحبة الشركة العربية وتشاهد مهارتك، فربما ينقلك ذلك إلى مرحلة مختلفة وعالم آخر.. فتصبح واحداً من مهندسيها وشخصا مهما في إمبراطوريتها المالية.

لم ينطق «علاء» بشيء وعاود العمل في اللوحة أمامه.

وواصل «مؤنس» همسا: لقد سمعت أنهم ينفقون أجورا للمهندسين في الشركة العربية، تصل إلى خمسة أضعاف رواتبنا.. فتلك العجوز التركية تدفع بسخاء لمن يعملون لديها.

تساءل «علاء» وهو مستغرق في عمله:

- أي عجوز تركية؟

أجابه «مؤنس»:

- إنها «نظلي» هانم صاحبة الشركة العربية المتحدة.. ويقال

إنهـا تمتلك ثروة هائلة تقـدر بعـشـرات الملايين وإنهـا عنيـدة كالصخر ويستحيل أن يقف في وجهها إنسان.. والمؤسف في الأمر أنها تجاوزت الثمانين عاما... وإلا لنسجت عليها شباكي وتزوجتها.. ولكنني أشك أن القدر سيمهلها حتى أنجح في ذلك!

رمق «علاء» صديقه الوسيم باسما.. كان «مؤنس» مشهورا بغـزواته وتنقله من قلب إلى آخـر، كطائر لا يحط في عش مستقر أبدا.. ووضع «علاء» الخط الأخير في لوحته قائلا: دعك من الأوهام والأحلام يا عزيزي.. وعليك أن تتعلم كيف تتعامل مع الواقع، لا أن تنسج من خيالك أحداثا لن تتحقق.

وطوى «علاء» الأوراق أمامه، في اللحظة التي ظهرت فيها «إيناس» خطيبته قادمة من مكتب السكرتارية وقد بدا على وجهها الجميل الرقيق ملامح سخط وغضب وهي تقول: لم تعد لي قدرة على الاستمرار في هذا العمل أكثر من ذلك.. لا يمكنني البقاء كل يوم الى هذا الوقت المتأخر.

والتفتت إلى «علاء» قائلة: هل ستبقى كعادتك أم ستأتي لتوصلني إلى المنزل؟

أجابها «علاء» في بعض الارتباك:

ـ لقد أنهيت عملي توا.. ولكن.. ألن يغضب المهندس «حسني» إذا غادرت الشركة قبل وصول ضيفه الخاص، وخاصة أنك سكرتيرته الوحيدة، ولا يمكن لغيرك أن يحل محلك و...

قاطعته «إيناس» في حدة: عليه أن يوظف سكرتيرة للعمل المسائي، إن كان يرغب في البقاء في الشركة مساء كل يوم.. وإذا أردت البقاء لتكون في خدمته فيمكنك أن تفعل ما دامت هوايتك الوحيدة هي البقاء في الشركة حتى منتصف الليل كل يوم.. أما أنا فسأغادر المكان حالا.

وخطت «إيناس» خارجة من الحجرة.. وبدا على «علاء» الحيرة والارتباك، فهمس «مؤنس» له: أسرع للحاق بها.. فإنها تبدو غاضبة بشدة، حتى أنني أخشى عليها أن تركل أول شخص يصادفها في الطريق.

حسم «علاء» تردده وأسرع خلف «إيناس»..

لم تكن ثورتها شيئا مفاجئا له.. بل إنه جرب ذلك عدة مرات منذ عينت سكرتيرة للشركة.. وبعد أن تشاجرا ذات مرة

لسبب تافه، .. وجد قلبه يميل إليها .. ولم يعد قادرا على الافتراق عنها منذ تلك اللحظة.

كانت أشبه بعاصفة عاتية عندما تغضب وتثور .. ونسمة صافية عندما تهدأ وترق. وقد كان قادرا على تبديد غضبها دائما.

ولحق بها أمام مدخل العمارة،ووجدها تشير إلى «تاكسي»، فقال لها: يمكننا استخدام سيارتي.

رمقت «إيناس» السيارة الصغيرة التي بدا انبعاجها واضحا في أكثر من ركن بسبب الصدمات المتكررة التي لحقت بها، والطلاء المنزوع عنها، فزمت شفتيها قائلة: من الأفضل لك أن تبيع هذه السيارة فمكانها في مقبرة السيارات، لا عالم الأحياء .. وخاصة أنها عندما تسير، يرتعد كل جزء فيها، وكأنها شخص يعاني من سكرات الموت!

فأجابها في رقة وعيناه تطوفان بملامحها الرقيقة الساحرة:

أعترف بأن سيارتي قد لا تناسبك، ولكنها على الأقل تجنبنا مضايقات سائقي «التاكسي» وعابري السبيل .. ولست أتمسك بها إلا لأجلك فقط.

أجابته «إيناس» بلهجة ساخرة: إنك لا تدخر وسعا في إسعادي حقا.

واستدارت إليه وهي تقول: ما رأيك في نزهة على أقدامنا اليوم؟

ابتهجت أسارير «علاء» وقال: هذا اقتراح جيد.

وسارا متشابكي الأيدي في الشارع العريض المتلألئ بالأنوار وواجهات المحلات التي تطل منها بضائع ثمينة. وتوقفت «إيناس» أمام فستان أنيق للسهرات واتسعت عيناها الصغيرتان وهي تراقبه في إعجاب شديد، وهمست لـ«علاء»: يا له من ثوب رائع.. تخيل.. إن ثمنه لا يزيد عن ألف جنيه فقط!

لم ينطق «علاء» بشيء.. كان كل ما يحمله في جيبه خمسين جنيها فقط.. ولا يزال باقيا آلاف عديدة على ما ادخره طوال سنوات، لكي يتمكن من استئجار شقة صغيرة صالحة للزواج. ولاحظ نظرات خطيبته إليه فقال في تقطيبة: إنه ثوب رائع حقا.. ولكنه غالي الثمن جدا.. بالنسبة لي على الأقل.

مطت «إيناس» شفتيها ورمقت خطيبها بنظرة تحمل قدرا

واضـحـا من الضـيـق قـائلة: إنك لا تملك ثـمنه بالطبع.. وربما تضطر للادخار من مرتبك عاما كاملا لشرائه لي.

نكس «علاء» بصـره وإحـسـاس شـديد بالألـم يمزقـه.. وأدار عينيه بعيدا فوقع بصره على حلية أنيقة جميلة بنصف ما معه من نقـود، فـقـال في صـوت جـريح: سـوف أشـتـري لك هذه الحلية.. فهي على بسـاطتـها تبدو جـمـيلة جدا وتناسب ثوبك الذي ترتدينه.

ولكنها هزت رأسها في استياء قائلة:

-إن الأشياء الرخيصة ليست بمثل هذا الجمال الذي تظنه.

أجابها في رقة: إن قـيـمـة الأشـيـاء لـيـست في ثـمنها بل في معناها، والمشاعر الحقيقية لا تقدر بمال.

فـرمـتـه «إيناس» بنظرة مـتـهكمـة، وعندما أوشك على دفع ثمن الحلية انتقت «إيناس» حلية أخرى وهي تقول له: ستسعد والدتي عندما تعرف أنك ابتعت لها حلية أيضا.

في صمت نقد «علاء» البائع خمسين جنيها..

وهكذا انتـهـت النزهة سريعـا.. كـمـا انتـهـت نزهات أخـرى قبلها.. لقلة ما يمتلك من مال.

ورمقته «إيناس» بنظرة قصيرة وهي تأخذ مكانها في السيارة: كنت أظن أن نزهتنا ستتضمن عشاء فاخرا على ضوء الشموع.. ولكن المؤسف أنك اعتدت دائما ألا تحمل معك سوى قدر ضئيل من المال في كل نزهة لنا.

أجابها «علاء» وهو يشعر بالحرج: إني أعدك بنزهة رائعة، أول يوم في الشهر، فقد قرر لي المهندس «حسني» مكافأة خاصة هذا الشهر، لإنجازي قدرات كبيرة من العمل.

أجابته «إيناس» في سخط: بل قل إنه يستغلك تماما، وأنك تخجل حتى من مطالبته بزيادة أجرك أو مضاعفته.

قاد «علاء» السيارة صامتا إلى منزل «إيناس»، وفتحت بابها وهي تقول: إن والدتي تتساءل، إلى متى ستظل خطبتنا؟

ـ غمغم بدهشة:

ـ إننا لم نخطب إلا منذ أقل من ستة أشهر.

بدا في عينيها الرقيقتين ضيق واضح وهي تقول:

ـ أعرف كثيرا ممن تزوجوا في نصف هذه المدة.

بدا الارتباك على ملامح «علاء» لحظة ثم قال: ولكنك تعرفين أن مقدم الشقة لم يكتمل معي. وقد أخبرتك بظروفي

قبل الخطوبة.. واتفقنا على كل التفاصيل واضطررنا لتأجيل الزواج عاماً أو أكثر.

التفتت «إيناس» تجاهه في حدة قائلة:

ـ لقد ضقت بكل شيء.. بذلك الانتظار الذي لا يبدو له نهاية، والمرتب الذي لا يسمح لي إلا بمشاهدة فترينات المحلات.. وشراء الحلي الرخيصة.

وعقدت حاجبيها الرقيقين الجميلين مواصلة: إن والدتي تقول: لو أنك تمكنت من الحصول على عقد عمل في الخارج، فستتحقق كل أحلامنا سريعا، ويمكنني السفر معك أيضا والزواج في أسرع وقت.

تجهم وجهه وهو يجيبها في حسم:

ـ لقد ناقشنا هذا الأمر من قبل.. أنت تعرفين أنه لا عائل لوالدتي وأختي سواي.. وأنا لا أستطيع مفارقتهما.. كما أنني أكره الاغتراب عن وطني مهما كان قدر المال الذي سأعود به.

أجابته «إيناس» في سخط:

ـ بل لنقل إنك تكره المال.. وربما الطموح أيضا.. ولا تفكر حتى في المطالبة بعلاوة أو ترقية.. وإنك ترغب في البقاء

مكانك كما أنت طوال عمرك، مكتفيا بما تسمعني إياه من عبارات غزل وحب، وكأننا سنسكن في قصر من نسج خيالك، وننفق من كنوز تعشش في رأسك وحدها!

وغادرت السيارة، وأغلقت خلفها الباب في عنف.

* * *

عرض.. بمليون جنيه

شاهدها «علاء» تمضي نحو مدخل مسكنها وتغيب عن عينيه.. دون أن تدعوه لفنجان شاي.. كأنه غريب عنها. في أغلب المرات ينتهي لقاؤهما بذلك الحوار الغاضب..

يعرف أن أحلامها بلا نهاية. تتسع لكل متع العالم.. ولكنه كان واقعيا.. لا يلهث خلف سراب أو أحلام غير مؤكدة..

علمته الحياة ألا ينخدع وراء البريق الزائف.. وهو مسئول عن أخت وأم منذ سنوات بعيدة، بعد وفاة أبيه.. ومطلوب منه توفير أسباب الحياة لهما.. وعدم المغامرة. وفي سبيل ذلك تحمل كثيرا من عواصف غضب «إيناس» وضيقها من كل شيء..

كان دائما يبدو مترددا أمامها.. مرتبكا حائرا، برغم ما اشتهر به من حزم وقوة شخصية..

ولكنه كان يخشى أن يفقدها. فتحمل دون شكوى.

قاد سيارته في شرود إلى منزله وهو يفكر في خطيبته.

لم يغضب مما فعلته. كانت رقتها وحديثها الشجي في لحظات صفائها تغفران لها كل ما تفعله في غضبها وثورتها..

تعلق قلبه بها منذ اللحظة الأولى التي شاهدها فيها وتمنى الارتباط بها.. ولأجل ذلك تحمل ما لم يتحمله خطيبان سابقان لها..

لا يمكنه أن يتخيل حياته بدونها أبدا.. مهما جفت معه هي أو والدتها.. كانت فتاة أحلامه التي يستحيل عليه أن يغامر بفقدها.. وكانت هي تتدلل كثيرا عليه لثقتها من ذلك.

تكشف «حي القلعة» لعينيه.. وبدا منزله من بعيد كواحة للأمان والراحة.

يعشق ذلك الحي.. يدمنه.. بمنازله الواطئة المتلاصقة، وعبق التاريخ الذي يفوح منه.. يسكن منزلا من طابقين، مبنيا على مساحة واسعة تحيطها حديقة عريضة.. كان ذلك المنزل هو الأثر الوحيد الباقي من ابيه.. فقط لو كانت «إيناس» ترضى بالسكن في الطابق الثاني منه لانحلت كل مشاكله.

لا يزال يذكر سخريتها من المنزل والحي بأكلمه عندما زارته مرة وحيدة مع والدتها. كانت ترغب في السكن في عمارة أنيقة فاخرة. لم تقع في هوى المكان، ربما لم تشب وتنمو بين دروبه الحجرية وباباته الضيقة وزواياه المتعرجة ونوافذه ومشربياته. . . لأنها لم تتشمم عبق التاريخ في كل زواياه.. لم يفتنها مشهد القلعة في الصباح الباكر أو وقت الغروب.. لم تتخيل القادة والولاة والأقوام الذي سكنوا ذلك المكان وابتنوه منزلاً وراء الآخر.. بعثوا فيه الحياة.. قاوموا الغزاة والولاة الظالمين والمماليك الفاسدين.. أرجفوا قلب نابليون وجيشه وثاروا على قلاوون وقاوموا الحاكم بالله وهتفوا بحياة محمد علي.. وكانوا زادا ووقودا لثورة سعد زغلول.

في ذلك المكان نقش تاريخ مصر بأكلمه.. عبق الماضي وأنفاس التاريخ لا تزال تتردد في ذلك المكان.. لا يطيق أن يغيب عن عينيه ساعات قليلة.. كأنه سمكة تموت إن غادرت ماءها.

ولد والده ومات في هذا المنزل.. كان هو المكان الوحيد الذي يشعر فيه بالأمان.. كأن والده لا يزال يعيش بين أركانه.

كأنه لا يزال حيا.. عيناه تسهران عليه وأخته ووالدته كل لحظة.. تسبغ عليهم الأمان والطمأنينة، فكيف له أن يفارقه؟

أوقف سيارته أمام مدخل المنزل وفتح بابه داخلا.. استقبلته والدته باشة.. وشاهد أخته جالسة إلى مكتبها وقد انهمكت في مذاكراتها فاقترب منها وهو يداعبها في حنان قائلا: ذاكري دروسك جيدا.. لن أقبل غير مجموع يؤهلك لكلية الهندسة.

أجابته بفرحة وأمل: بإذن الله.

قالت الأم في رقة لا تخلو من شجن: يكفي «هويدا» النجاح لدخول معهد صغير أو كلية نظرية.

قطّب «علاء» حاجبيه، أحس بلسعة الحزن في كلمات والدته فقال: لا يا أمي.. ستدخل «هويدا» كلية الهندسة بإذن الله، ولو كلفني ذلك العمل ليل نهار للإنفاق على دراستها في الجامعة.

صمتت الأم ولم تعلق.. تعرف أن ابنها يتحمل الكثير ولم تشأ إثارة أوجاعه بمزيد من الحديث في هذا الأمر، خاصة وهي تعرف قدر المشاكل التي تثيرها خطيبته التي لم ترتح لها أبدا.

وأخفت «هويدا» عينيها بين سطور كتبها. تشفق هي أيضا على أخيها ولكن أحلامها لا تشفق عليها أبدا.. كانت

أحلامها تحفل بأشياء رائعة.. عالم مختلف مثير.. ولكن قسوة الواقع ووطأته كانت تبدد أحلامها سريعا ولا تبقي لها إلا غصة في الحلق، وجرحا في القلب.

* * *

تناول «علاء» غذاءه شاردا ودقت يد جرس الباب وأصابته دهشة.. لا ينتظر زائرا وليس ثمة قريب أو صديق يزوره في منزله.

نهض ففتح باب المنزل.. طالعته وجوه ثلاثة رجال في حلل أنيقة وربطات عنق أضفت على وجوه أصحابها وقارات ومهابة.. وأوحت حقائبهم الرسمية السوداء بأنهم جاءوا لمهمة خاصة.

قال أولهم بابتسامة باردة: هل تسمح لنا بدقيقة واحدة من وقتك؟

وقال الثاني: سيهمك أن تستمع إلى الأمر الذي أتينا لعرضه عليك.

اندهش «علاء» قليلا.. انقبض قلبه وقد أحس أن أولئك

الأشخاص لا يحملون خيرا داخل حقائبهم السوداء.. انسحبت والدته وأخته من الصالة.. أشار للرجال الثلاثة فخطوا نحو الصالون القديم الذي تساقط طلاء مقاعده الذهبي.

قال الأول وهو يجلس: إنك تعرف دون شك أن حي القلعة باكمله تشمله خطة تطوير العاصمة.. وخاصة بعد الزلزال الاخير الذي هدم جزءا كبيرا من منازله، وصدر قرار بإزالة جزء آخر.

قال الثاني: وإن منطقتك هذه هي أكثر المناطق التي تأثرت بالزلزال.

أشار الثالث إلى شقوق واضحة في الحائط قائلا: وليس مستبعدا أن ينهار هذا المنزل في أي لحظة.

غمغم «علاء» في حيرة ودهشة:

- لست أفهم ما تريدون.

أجابه الأول وهو يفتح حقيبته السوداء:

لقد جئنا باعتبارنا ممثلين قانونيين لشركة استثمارية ضخمة لنقدم لك عرضا أظنك ستحبذه، وهو أن تبيع لنا هذا المنزل والأرض المقام عليها.

انتفض «علاء» كمن لدغته عقرب هاتفا :

ـ ماذا؟

قال الثاني :

ـ وهذا سيتبعه إخلاؤكم لهذا المنزل وهدمه.

قال الثالث:

ـ فمشروعنا العملاق يحتم إزالة كل منازل هذه المنطقة، لبناء مجموعة من الفنادق والمشروعات الاستمثارية حول القلعة.

مد الأول الى «علاء» بضعة عقود ممهورة بإمضاءات وفوقها أختام الشهر العقاري بعد أن أخرجها من حقيبته قائلا :

ـ لقد وافق أكثر من ثلاثة أرباع السكان حتى الآن على البيع ووقعوا عقودا بذلك.

قال الثاني في لهجة ماكرة:

ولا أظنك سترفض بعد أن تعرف المبلغ الذي نعرضه عليك ثمنا للبيع. فهو يمكنك من شراء شقة فاخرة في حي راق وادخار مبلغ آخر تضعه في البنك.. فما رأيك.. هل تجد مبلغ نصف مليون جنيه مناسبا؟

هب «علاء» واقفا في عنف صائحا:

ـ أيها الحمقى المهرجون.. هل تتحدثون صدقا حقا؟.

أجاب أحدهم في تقطيب حاد:

ـ وهل ترانا نهزل؟

لوح «علاء» بقبضته في غضب صائحا:

ـ لن أبيع هذا المنزل مهما كان الثمن.

قال آخر بلهجة تسليم:

ـ إذن فلنقل إننا سنزيد مبلغ عرضنا و..

قاطعه «علاء» في إصرار حاد:

ـ قلت إنني لن أبيع منزلي بأي ثمن.

رماه الأول بنظرة حادة وهو يقول:

ـ إن أقصى ما نستطيع أن ندفعه هو مبلغ مليون جنيه.. ولا تظن أن رفضك سيجعلنا نزيد جنيها واحدا.

أشار «علاء» إلى باب المنزل صائحا وكل ذرة في جسده تنتفض:

ـ اخرجوا من منزلي حالا.

حدجه الثاني في غضب قائلا:

ستندم على هذه الفرصة.

دفعه «علاء» في عنف صائحا:

ـ قلت اخرجوا أو أستدعي لكم الشرطة.

رماه الثالث بنظرة تهديد ساخرة وهو يقول له:

ـ حسنا.. ستكون أنت وحدك الملوم.. فقد صدر قرار إزالة المنزل هذا الصباح.. وإذا لم تسارع ببيع الأرض لنا.. فستجد نفسك وأسرتك في العراء دون مأوى.. وتذكر أننا نمتلك وسائلنا الخاصة في حصولنا على ما نريده. وما لن توافق عليه بإرادتك، ستوافق عليه مرغما.

وغادر الرجال الثلاثة المكان.. تاركين «علاء» يعاني من الذهول.

وأقبلت الأم شاحبة الوجه، وقالت بصوت مرتعد: هل حقا سيهدمون المنزل يا ولدي؟

انتفض «علاء» وهتف في عنف:

ـ لا.. مستحيل.. لن يحدث ذلك إلا على جثتي.

واندفع مغادرا المنزل.. وصرخت الأم: إلى أين ستذهب يا ولدي.

ولكن صرختها لم تأت برد وسمعت صوت موتور سيارة «علاء» يدور بصوت متحشرج فانقبض قلبها.. كان الموت عندها أهون من مغادرة ذلك المكان.. ولم تصدق أنها في لحظة يمكن أن تفقده هكذا.. كانت تفضل البقاء داخله حتى لو تهدم فوق رأسها.

داهمها نفس الشعور.. يوم أن فقدت زوجها إلى الأبد، وأحست أنها توشك على فراق عزيز آخر.. فسالت دموعها من عينيها في صمت أليم، وقد وقفت «هويدا» الى جوارها وقد تجمدت ملامحها في ذهول..

كان رقم المليون لا يزال يطن في عقلها.. وقد بدا كأنه يفتح لها أبوابا من السعادة لم تحلم بها يوما ما.

وتساءلت في ذهول كيف يرفض أخوها مثل ذلك العرض بسبب منزل قديم متشقق الجدران كئيب الملامح؟

* * *

التركية العجوز

قال ضابط الشرطة: هذا هو ما حدث بالفعل.. فقد صدرت قرارات بالإزالة لأكثر من نصف منازل الحي.. وهذه القرارات واجبة التنفيذ بأمر القانون.

ابتلع «علاء» دهشته وقال للضابط:

- إنني لا أدري متى صدرت هذه القرارات ولا ما هي اليد الخفية التي أصدرتها دون أن تعلننا بها بطريقة رسمية.. ولكن لن أقف مكتوف الأيدي، وسأسلك نفس الطريق القانوني الذي يتبح لي استئناف قرار الإزالة وتعيين خبير لفحص المنزل لإثبات أنه غير آيل للسقوط.

تراجع الضابط في مقعده قائلا في اهتمام:

ولكني بالرغم من ذلك، أرى أن مبلغ المليون جنيه، يزيد كثيرا عما تساويه الأرض التي يقع منزلك فوقها.

بدا الضيق على وجه «علاء» وهو يجيب:

ـ ليست المسألة قدر المال.. ولكن هناك اعتبارات أخرى لا أظنك ستفهمها.

وعندما عاد إلى منزله كانت ابتسامة عريضة تملأ ملامحه. واستقبلته والدته في ارتعاد قائلة: ماذا فعلت يا «علاء».. هل سيهدمون منزلنا؟

أجابها باسما في ثقة:

ـ لا.. اطمئني يا أمي.. لقد اعترضت على قرار الإزالة في النيابة التي أحالت الأمر إلى القضاء لتعيين خبير لفحص المنزل وهو أمر سيستغرق أعواما، وفي النهاية فإنني واثق من أن القرار سيكون لصالحنا، فإنني مهندس إنشاءات وأعرف ان حالة منزلنا جيدة، ولن يتم الحكم بهدمه أبدا.

وصمت لحظة ثم أضاف حزينا:

ولكن ما يؤلمني هو أن أغلب سكان الحي باعوا منازلهم وأرضهم لتلك الشركة، وقد بدؤوا في إخلاء منازلهم بإرادتهم.. ولا أدري كيف يتخلون عن بيوتهم التي ولدوا وعاشوا فيها

وقبلهم اباؤهم وجدودهم.. كيف يتخلون عنها بمثل تلك البساطة.. وهل سيغنيهم المال عن ذكريات لن تعوض أبدا؟

ربتت الأم في إشفاق على ابنها قائلة:

ـ أنت لا تدري يا ولدي ماذا يفعل المال بالبشر.. ولكن الحمد لله أنك أوقفت قرار الإزالة في الوقت المناسب، فمال العالم كله لن يستطيع تعويضنا عن منزلنا.

من مكانها في حجرتها عبر بابها المفتوح قطبت «هويدا» ملامحها في حزن عميق وجاهدت لتمنع دموعها.. كانت تشعر بغصة وهي ترى أحلامها تموت في مهدها.. وكأنما حكم عليها أن تعيش بين تلك الحوائط الباردة المتشققة حتى تموت أيضا وهي ترى زميلات لها يعشن في «فيللات» وشقق فاخرة ويتمتعن بالحياة.. في حين تحرم هي من أقل المتع دون أن تكون قادرة حتى على الشكوى.

كانت تتمنى لو أن أخاها وأمها وافقا على عرض البيع الذي جاء دون انتظار..

وأراحت رأسها فوق كتابها المفتوح.. وقد أغرقت دموعها صفحات الكتاب.

وكان الوقت يقترب من الفجر.. عندما أحس «علاء» بفراشه يهتز من تحته والحوائط ترتج حوله. وتنبه في ذهول متسائلا إن كان زلزال آخر يضرب المنزل بلا رحمة؟

واخترق أذنيه صوت هادر من الخارج.. كأنه لآلة رهيبة ترج الأرض رجا.. وفي اللحظة التالية أسقطه من فراشه صوت اصطدام عنيف، بدا وكأنه انفجار قنبلة داخل المنزل.

اندفع مغادرا حجرته فشاهد الأتربة تغطي الصالة، وقد انهار جزء من جدارها، ولحقت به والدته وأخته صارختين وقالت الأم في رعب: ماذا يحدث يا «علاء».. يبدو وكأن منزلا آخر انهار فوق منزلنا، أو كأنما اصطدم به قطار.

صاح «علاء»: لنسرع بمغادرة المنزل يا أمي قبل أن يتهدم فوق رؤوسنا.

وقفز خارجا من المنزل تتبعه والدته وأخته في هلع.

وفي الخارج فاجأهم المشهد المثير أمام عيونهم المفتوحة عن آخرها..

كان هناك «لودر» ضخم بارتفاع منزلهم تأرجحت ذراعه المعدنية الضخمة في الهواء وقد تأهب سائقه لكي يصدم

بالذراع الهائل المنزل مرة أخرى فيحيله إلى كوم من الأنقاض.

وأدرك «علاء» الحقيقة بغتة.. لم يكن ما أسقطه من فوق فراشه زلزالاً أو انهيار منزل فوق منزلهم.. بل كان ضربة من ذراع ذلك «اللودر» الضخم.. كأنه وحش خرافي.

وقفز «علاء» صارخا في جنون: توقف أيها السائق الوغد.

واندفع جاريا ليتوقف في منتصف المسافة ما بين ذراع «اللودر» العملاق وحائط المنزل فتجمدت ذراع سائق «اللودر» للمفاجأة غير المتوقعة وانتهز «علاء» الفرصة فقفز داخلا كبينة السائق، وصاح فيه ثائرا: هل أرسلوك لتهدم المنزل فوق رؤوس ساكنيه وهم نيام أيها الوغد؟

وطارت قبضته لتصيب فك السائق، ولكن الأخير تحاشى اللكمة، وركل «علاء» بقدمه ركلة عنيفة، فأسقطه من الكابينة خارجها من ارتفاع عدة أمتار.

وصرخت الأم و«هويدا» واندفعتا نحو «علاء» الراقد فوق الأرض..

وتحرك السائق بـ«اللودر» بعيدا هاربا من المكان وهو يرج الأرض تحته.

صرخت الأم وهي تحتضن «علاء»: هل أصابك مكروه يا ولدي؟

تحسس «علاء» جبهته الدامية من أثر سقوطه واصطدامه بالأرض، وغمغم متغلبا على آلامه: لا شيء يا أمي.

وتحامل على ساقيه قائلا: سأذهب لتحرير محضر في قسم الشرطة بما حدث.. فلا شك أن من أرسل هذا «اللودر» لهدم المنزل هم أصحاب عرض شراء المنزل، وسأرسل بهم إلى السجن جزاء لهم على فعلتهم.

وقفز إلى سيارته كالمحموم وقادها باتجاه قسم الشرطة. واندفع إلى مكتب الضابط النوبتشي الذي راح يغالب نومه، فأخذ يشرح له ما حدث، أنهى حديثه قائلا:

إنني أريد تحرير محضر ضد سائق «اللودر» هذا.

استيقظ الضابط تماما وتساءل:

- وهل تعرف من يكون أو رقم «اللودر»؟

هز «علاء» رأسه نافيا وهو يقول:

- لا!! ولكنني أعرف من يقف خلف ما حدث.

مال الضابط إلى الأمام وهو يجيبه:

ـ ولكن اتهامك سيكون بلا دليل.. فلا أنت قبضت على ذلك السائق متلبسا.. ولا لديك دليل على أن هناك آخرين حرضوه على ما فعله.. بل ويمكنه حتى بعد القبض عليه أن يقول إن الأمر كان مجرد حادث غير مقصود..

صدمت عبارات الضابط «علاء»، فتساءل في حيرة:

ـ ماذا تعني بذلك؟

هز الضابط كتفيه قائلا:

ـ لست أعني شيئا، ولكني أشرح لك حقيقة الوضع القانوني لاتهامك، وليس من شك أن المحضر الذي ستحرره ستحفظه النيابة لأنه لا دليل على صحة الاتهامات فيه.. وربما ينقلب الأمر عليك لأن من تتهمه قد يرفع عليك قضية تعويض بسبب اتهامك الذي لم تؤيده بأي مستند.

ـ والمنزل الذي انهار جزء منه؟

أجابه الضابط في هدوء:

ـ المنازل تنهار لأسباب عديدة.

ومال الضابط على «علاء» أكثر وهو يقول له: إنني

أنصحك أن تذهب للتفاهم مع من تعتقد أنهم وراء هذا العمل.. أنا أقول لك هذه النصيحة بصفة غير رسمية بالطبع.

ولا داعي لتحرير محضر لأنه لن يثبت شيئا، ولكن إن أصررت على ذلك فلا مانع عندي.

رمق «علاء» الضابط في صمت وهو يقلب الأمر على مختلف وجوهه.

وتساءل بعد لحظة: هل يمكنك أن تخبرني يا سيدي باسم تلك الشركة الاستثمارية التي قامت بشراء أغلب منازل الحي؟

أجابه الضابط وهو يتثاءب:

ـ إنها شركة المقاولات العربية المتحدة.

صاح «علاء» وقد أخذته المفاجأة:

ـ ماذا؟

رمقه الضابط في دهشة، وغمغم «علاء» في ذهول: إنها إذن تلك العجوز التركية الشمطاء «نظلي».. لقد بدأ الأمر يتجلى لذهني الآن.. فلعلها لا تزال تظن أن ثروتها وعنادها يمكن أن يعيدا عهدا مضى منذ زمن.. عندما تحكم آباؤها وأجدادها في رقاب العباد المساكين.

وقفز واقفا في غضب مضيفا: ولكني سأثبت لها خطأ ظنها، وأن الزمن قد تغير.

وأشار إلى الضابط قائلا: إنني أرغب في تحرير محضر أتهم فيه صاحبة هذه الشركة بمحاولة هدم منزلي.. وسأسوقها إلى النيابة والمحكمة إن أمكنني ذلك مهما كلفني الأمر من جهد ومال.

وضاقت عيناه وهو يضيف في صوت يشتعل غضبا: ولسوف أذهب الى هذه التركية العجوز ولو كانت تتحصن في قلعة لأخبرها برأيي فيها، وأن أموال العالم كله لن تجبرني على بيع منزلي.. ولو اقتضى الأمر أن أهدم المكان فوق رأسها، كما حاولت أن تفعل معي!

* * *

التحدي

اندفع «علاء» إلى مكتب السكرتارية الضخم في مبنى الشركة الفاخر.. كانت هناك أكثر من سكرتيرة يعملن في نشاط وسرعة.. وفي نهاية الحجرة كان ثمة باب عليه عبارة «رئيس مجلس الإدارة» لم يكن من شك أنه يخص التركية العجوز صاحبة الشركة.

كان «علاء» لا يزال يشعر بالغيظ بعد أن قضى الليل متعجلا شمس الصباح، وحاول كبت مشاعره وهو يقترب من إحدى السكرتيرات وقال لها: أريد مقابلة صاحبة الشركة.

فسألته بابتسامة عريضة:

ـ هل هناك موعد سابق؟

أجابها في تجهم بالنفي، فانكمشت الابتسامة العريضة فوق وجه السكرتيرة وهي تجيبه:

- أنا آسفة يا سيدي.. ولكن يجب تحديد موعد سابق أولا.. ويمكنك أن تترك اسمك ورقم هاتفك والغرض من المقابلة وسوف نتصل بك حالما يتحدد الموعد و..

قاطعها «علاء» في غضب: لن أنتظر أي موعد.. ويجب أن أقابل صاحبة هذه الشركة فورا.

زمت السكرتيرة شفتيها في تصميم قائلة:

- هذا مستحيل.

أجابها «علاء» ساخرا:

- بل سأقابلها حالا، سواء وافقت أم رفضت.

واندفع نحو باب مكتب رئيس مجلس الإدارة واقتحمه في غضب، وصوت السكرتيرة من خلفه يأتي مستغيثا: ليستدع أحدكم رجال الأمن بسرعة.

ولكن كلمات الاستغاثة لم توقف «علاء» واندفع إلى المكتب صائحا: أين تلك العجوز التركية الشمطاء صاحبة هذه الشركة؟

لم يكن بالمكتب العريض الفاخر أحد وطالعت عينا «علاء» حجرة متسعة تحتوي على منضدة اجتماعات ضخمة وعدد من أجهزة التلفزيون والفاكس والتليفونات.. وقد تناثرت الأرائك

والمقاعد الفاخرة في كل الأركان، على حين كانت هناك صور عديدة فوق الحوائط لأشخاص بدت ملامحهم التركية واضحة وهي تنم عن هويتهم ورفعة شأنهم.

وتوقف بصر «علاء» على المكتب الفاخر المصنوع من خشب الجوز.. كان ظهر مقعده له.. وقد بدا كأن شخصا يجلس إليه ويعطيه ظهره دون أن ينتبه لدخوله.

واستدار المقعد في بطء.. وتجمدت عينا «علاء» على تلك الحسناء الجالسة إلى المقعد الدوار وهي ممسكة بسماعة الهاتف وقد بدا أنها أنهت حديثاً ما فأعادت السماعة مكانها وهي ترمق «علاء» في بعض الدهشة لاقتحامه المكان دون استئذان. كانت شقراء فاتنة لا يزيد عمرها على خمس وعشرين سنة.. وجهها مستدير ممتلئ يفيض حمرة وصحة، وشفتاها مكتنزتان كثمرة تفاح ناضجة مشقوقة في المنتصف تماما. ويكلل وجهها تاج من الشعر الذهبي، يضم قرطين من الماس يتألقان بوهج حاد في نهاية أذنيها.

وحدقت الشقراء في «علاء» بعينين زرقاوين واسعتين وقد نمت ملامحها عن صرامة وقسوة.. فجمد «علاء» مكانه وهو

يبادلها النظرة المندهشة بدهشة لا تقل عنها.. وقد تبخر غضبه تماما، وهو لا يدري من تكون تلك الحسناء الفاتنة، التي تقطع ملامحها بأنها تنتمي إلى جذور تركية أصيلة.

واندفع إلى الحجرة ثلاثة من رجال الأمن شاهرين مسدساتهم، وانقضوا على «علاء» في لحظة خاطفة، فصاح غاضبا وهو يقاومهم: لن أغادر هذا المكان قبل أن أقابل تلك العجوز الشمطاء.

أشارت «شيرويت» بيدها الرقيقة المنمقة الأظافر، فعكست الأضواء القوية في الحجرة، بريق خواتم ماسية عديدة في أصابعها.. وفي الحال توقف الحرّاس الثلاثة عن الحركة وجمدوا في أماكنهم.. ونطقت «شيرويت» لأول مرة قائلة لـ«علاء»: من تقصد بالعجوز الشمطاء؟

تقدم «علاء» نحو «شيرويت» وقد بدأ غضبه يتصاعد مرة أخرى فصدمه عطرها الفاخر الفواح، ولكنه تمالك نفسه قائلا: إنني أقصد نظلي.. صاحبة هذه الشركة.

تعقد حاجبا «شيرويت» في دهشة لم تستغرق إلا لحظة خاطفة، ثم تساءلت بصوت تفوح منه رائحة السخرية:

ـ وماذا تريد منها؟

أجابها في حدة:

ـ هذا أمر لا يخص أحدا غيرها.

وضاقت عيناه قبل أن يتساءل في حيرة: ولكن من تكونين؟

هزت «شيرويت» كتفيها وابتسامة ساخرة تكسو وجهها الفاتن قائلة: إنني صاحبة هذه الشركة!

بوغت «علاء» بالإجابة.. انعقد لسانه لحظة، قبل أن يغمغم بشفتين جافتين: أنت؟

غادرت «شيرويت» مقعدها، فبدا بدنها متسقا رائع التكوين في ذلك «التايير» الحريري الرقيق الذي أحكم ضم جسدها البديع التفاصيل.

وأضافت بنفس الابتسامة الساحرة وعطرها يزيدها سحرا: لم تعد جدتي «نظلي» قادرة على إدارة هذه الشركة بعد أن أقعدتها أمراض الشيخوخة.. ولهذا توليت هذا الأمر.. منذ بضعة أشهر فقط، فهل ثمة سبب دفعك إلى اقتحام مكتبي بهذا الشكل؟

حدق «علاء» في الحسناء الفاتنة أمامه وغمغم في غضب:

ـ إذن فمن استأجر ذلك الوغد سائق «اللودر» لهدم منزلي هل هو أنت؟!.. ولعله يعمل في خدمتك أيضا، وقد نال مكافأة سخية على فعلته.

تعقد حاجبا «شيرويت» وتكدر صفاء عينيها الزرقاوين الفاتنتين، قبل أن تجيب بصوت حانق: إذن فأنت صاحب ذلك المنزل بحي القلعة، الذي يرفض إخلاءه وبيعه.

أجابها «علاء» في حدة:

ـ نعم أنا هو.. وقد حررت مذكرة ضدك بقسم الشرطة و..

قاطعته «شيرويت» في استنكار هاتفة: مذكرة في قسم الشرطة؟

وانطلقت ضاحكة بصوت عال و«علاء» يراقبها بدهشة، ثم قطعت ضحكتها بغتة وقد اكتست ملامحها بقناع حاد من الغضب وهتفت: عن أي مذكرة تتحدث أيها الأحمق.. إنني أمتلك جيشا من المحامين قادرين ليس فقط على تسفيه مذكرتك، بل وعلى إلصاق مائة تهمة بك تلقيك في السجن إلى الأبد، ولعل قائمة الاتهامات تبدأ باقتحامك مكتبي وتهديدك السافر لي.

ولكن «علاء» لم يهتز من لهجة التهديد الساخرة وأجابها:

ـ أنت واهمة ولن تستطيعي مس شعرة مني بأذى.. وقد جئت لأخبرك أنني لن أتخلى عن هذا المنزل أبدا مهما حاولت.. اعترضت على قرار الإزالة وتحول الأمر إلى المحكمة و..

قاطعته «شيرويت» في لهجة رقيقة، وقد تبدلت ملامحها تماما وهي تقول له:

ـ إنك لا تدري أهمية شرائنا لهذا المنزل بالذات، فهو يتوسط كل المنازل التي اشتريناها في الحي، وبدون حصولنا على أرضه لضمها إلى مشروعنا سيعطل هذا المشروع ويتوقف تماما، وهي خسارة لا نستطيع تحملها.

وصمتت لحظة قبل أن تضيف في دهاء:

ـ أعتقد أنني لم أعرض عليك مبلغا مناسبا لهذا المنزل.. فما رأيك في مبلغ مليون ونصف مليون جنيه؟

لم يظهر على «علاء» أي تأثر بالرقم الذي سمعه، وقال في توكيد: لن أبيع منزلي مهما كان الثمن. ولا يهمني ما ستخسرينه بسببي، فهذه مشكلتك أنت لا مشكلتي.. وإذا

كانت كل الأشياء تقدر لديك بالمال، فيهمني إبلاغك أن هذا المنزل هو حياتي ذاتها.. ولست قادرة على شراء حياتي حتى بكل ملايينك.

واستدار «علاء» نحو باب المكتب.. وقبل أن يغادر أشار إلى «شيرويت» بأصبعه قائلا بغضب مكبوت: لقد جئت لتحذيرك من محاولة الاقتراب من منزلي مرة أخرى.. وإلا فستدفعين ثمنا غاليا، مهما كان حجم جيش محاميك.

ثم غادر المكان وهو يغلي من الغضب.

وارتعدت أصابع «شيرويت» الرقيقة المحلاة بفصوص الماس، وهمست بشفتين تتفجران ثورة: هذا الأحمق يهددني ويحذرني فمن يظن نفسه هذا التافه؟

هتف أحد رجال الأمن وهو يضع يده على سلاحه متأهبا:

ـ هل نلحق به يا سيدتي قبل مغادرة الشركة، لنحطم له ذراعاً أو ساقا ليتأدب في المرة القادمة.

لمعت عينا «شيرويت» ببريق غامض وهي تقول:

ـ لا.. إنني أفكر في شيء آخر.. وسيلة للإقناع أقل عنفا.. فإنني لا أميل للعنف كثيرا.

وأشارت إلى رجال الأمن فغادروا المكان ثم ضغطت زرا إلى جوارها وبعد لحظة خطا شخصان في حلل أنيقة، تبين على وجهيهما معالم ذكاء متقد، فقالت «شيرويت» لهما: أريد معلومات كاملة عن ذلك الشاب صاحب منزل القلعة الذي يرفض بيعه لنا.. وأرغب في الحصول على هذه المعلومات قبل صباح الغد.

أومأ الرجلان برأسيهما وغادرا المكان في صمت.

وعادت «شيرويت» إلى مقعدها، وتلاعبت ابتسامة قاسية فوق شفتيها، وغمغمت بصوت يستشيط غضبا: لسوف أعرف كيف ألقن هذا الأحمق درسا لن ينساه طوال عمره..

* * *

هبت «إيناس» واقفة في ذهول قائلة: هل جننت.. أتقول إنك رفضت عرضا لبيع منزلك بمليون ونصف مليون جنيه؟

هتف «علاء» في صوت خفيض مترجيا:

- أرجوك اخفضي صوتك يا «إيناس» فنحن في مكان عمل.. فالأمر ليس نقودا فقط.

صاحت «إيناس» في غضب هادر:

ـ أيها الأحمق.. وماذا يهم غير النقود.. أترفض مثل هذه الملايين التي يمكنها أن تحل كل مشاكلنا لنتزوج ونعيش في سعادة، لمجرد بعض المشاعر الحمقاء عن تعلقك بهذا المنزل الذي لا يساوي شيئا.. إنها هبة جاءتنا من السماء فكيف ترفضها، بل إننا نستطيع مساومة أصحاب تلك الشركة ليرفعوا ثمن البيع ويضاعفوا الثمن، ما داموا في حاجة ماسة إليه، وهكذا يمكننا أن نصير أثرياء بقية حياتنا.

كرر «علاء» في إصرار:

ـ لن أبيع هذا المنزل مهما كان الثمن.

صرت «إيناس» على أسنانها في غضب هاتفة:

ـ بل ستبيعه.. أؤكد لك أنك ستفعل ذلك حتما.

ـ واجهها «علاء» في غضب قائلا:

ـ كيف تتأكدين؟

أجابته في لهجة تحدٍّ، دون أن تعبأ بالعيون الفضولية التي أحاطت بهما:

ـ لأن مصيرنا نحن الاثنين يتوقف على ذلك.. فإما أن تبيع

هذا المنزل لننعم بثمنه ونبدأ حياتنا.. وإما أن يمضي كل منا في سبيل.

حدق فيها «علاء» غير مصدق.. لم يكن يظن أن النقود تهمها إلى ذلك الحد.. لكي تضعه في كفة والنقود في كفة، دون النظر لأي مشاعر أو اعتبارات.. أخرى لا يصدق أنها تجرؤ على هدم ذكرياته لتبدأ حياة جديدة..

نكس رأسه ولم يدر.. وتحاشى النظر في العيون المحدقة صوبه.

وجرجر قدميه ليغادر الشركة، ولحقت «إيناس» به من الخلف.. أمسكت أصابعه في رقة..

استدار نحوها.. بدا في عينيها شيء من الاعتذار وهمست تقول له: لم أكن أقصد إغضابك.. ولكني أريد أن تفكر في الأمر من كل الوجوه.. فكر في ما تفعله بهذه النقود كلها.. إنها يمكنها أن تمنحنا السعادة والهناء بقية عمرنا.. إننا نستطيع بثمنها أن نشتري شقة فاخرة وسيارة رائعة.. وأن أمتلك كل ما حلمت به، صدقني، إن هذا المنزل ثمن ضئيل لسعادتنا.. ففكر في الأمر مرتين.

لم ينطق «علاء» وغادر الشركة صامتا.. ظلت عيناه

شاردتين.. يرى «إيناس» في ناحية ونقوداً كثيرة لا حصر لها في ناحية أخرى..

نقود لم يحلم بها أبدا.. ولم تلمسها يده قط..

أغضبه بشدة أن خيرته «إيناس» بينه وبين النقود.. لم يتخيل أن تتخذ هذا الموقف أبدا.. أن يتوقف ارتباطهما على قدر المال الذي يجلبه إليها.. كأنه لم يكتشف ذلك إلا تلك اللحظة.. أن يعلو صوتها الغاضب لتنشر الأخبار والأسرار على الملأ دون أي اعتبار لمشاعره.

وعندما عاد إلى منزله.. وجد والدته جالسة تنتظره في صمت وآثار دموع مريرة في عينيها..

كأنها تدرك أنه يخوض معركة يوشك مصيرها أن يتحدد. فيتحدد مصيرها هي أيضا معها.

ألقى «علاء» نظرة إلى صورة والده المعلقة إلى الجدار.. كأنه يستمد منه القوة والإرادة.. واستدار إلى والدته قائلا: سوف نرم المنزل غدا لنعيد ما تهدم منه.. ولن نغادره أبدا..

واستدار إلى حجرته كأنه يهرب إليها من ذاته.. ومن حلم الملايين.

مفاجأة قاسية

جفف المهندس «حسني» قطرات العرق التي تجمعت فوق جبهته، وقال في دهشة وتوتر: هذا مطلب غريب يا سيدتي.. فلماذا ترغبين أن أقوم بفصل المهندس «علاء»، وهو أفضل المهندسين في شركتي؟

نقرت «شيرويت» فوق حافة المكتب أمامها بأظافرها المنمقة البديعة قائلة:

- هذا هو شرطي الوحيد لإتمام الصفقة بيننا. وفي حالة رفضه اعتبر اتفاقنا لاغيا.. ولا أظن أن بقاء المهندس «علاء» في شركتك مهما كانت براعته ومهارته الهندسية سيجعلك تربح الملايين التي تنتظرك في حالة مشاركة شركتي لمشاريعك.

وأضافت وهي تميل تجاه محدثها، ونظرة باردة تكسو عينيها: ولا تسألني عن السبب فهو أمر أحتفظ به لنفسي.

أوشك المهندس « حسني » أن يقول شيئا ما ولكنه تراجع . . بدت عليه دهشة وحيرة واضحة وتعقد حاجباه في توتر، و« شيرويت » جالسة أمامه تحاصره بنظراتها، دون أن يدرك سحر المال وتأثيره . اعتادت دائما أن تصل إلى ما تريد بوسائلها الخاصة ودهائها . . وكانت واثقة من النجاح هذه المرة أيضا . فهي أول من يدرك سحر المال وتأثيره .

ورطب المهندس « حسني » شفتيه الجافتين بلسانه، وغمغم أخيرا في انكسار : كما تشائين يا سيدتي .

هبت « شيرويت » واقفة وابتسامة عريضة تتراقص فوق شفتيها المكتنزتين قائلة : رائع . . إنك تبدي تعاونا مدهشا . . ولسوف يأتي مدير عقودي ليوقع عقود المشاركة بعد ساعة على الأكثر .

وخطت خارجة من الحجرة وعينا « حسني » تتابعانها في صمت . . ثم تهاوى فوق مقعده وأخفى وجهه بين كفيه، معتصرا جبهته براحتيه . . كأنه لا يصدق ما جرى منذ لحظات .

* * *

أوقف «علاء» سيارته أمام مدخل مبنى الشركة.. وما كاد يغادرها حتى جمد مكانه وهو يشاهد «شيرويت» تخطو خارجة من المبنى.

صدمته المفاجأة، توقف يخدق فيها ذاهلا لحظة، ورمقته «شيرويت» بنظرة أودعتها كل سخريتها وعطرها الساحر يوشك أن يدير رأسه، ثم خطت إلى سيارتها الفارهة التي كان سائقها ينتظر عند بابها في حلة رسمية أنيقة.

وعندما انطلقت السيارة بصاحبتها أفاق «علاء» من ذهوله.. وتحرك بوجه شاحب نحو باب المصعد القريب.

دق قلبه في عنف.. وتوقع شرا لا يدري مصدره، وهو يتساءل، ما الذي أتى بـ«شيرويت» إلى شركته في ذلك الوقت بالذات؟

وما أن خطا داخلا مكتبه حتى وجد المهندس «حسني» في انتظاره.. وترامق الاثنان في نظرة طويلة.. وقد تعقد ما بين حاجبي «علاء» وقال:

ترى هل جاءت تلك الحسناء سليلة الأتراك وصاحبة الملايين التي لا تحصى في أمر يخصني؟

تنحنح المهندس «حسني» قبل أن يجيب بصوت مختنق:

نعم.

تعقد حاجبا «علاء» أكثر وقال في تجهم:

- ترى هل جاءت لإقناعك بأن أبيعها منزلي، أم أنها ضاعفت الثمن.. ليتني واجهتها لأخبرتها مرة أخرى أنها تبذل مجهودا ضائعا.. وأن ملايينها كلها لن تتمكن من شرائي.

تطلع إليه المهندس «حسني» في صمت وبدا عليه كأنما أدرك سبب طلب «شيرويت» الغريب، وغمغم: إن «شيرويت» لم تأت لهذا السبب.

تساءل «علاء» في حيرة:

- إذن ما الذي أتى بها؟

أجابه المهندس «حسني» في صوت مختنق:

- إنها.. إنها ترغب في أن أفصلك.

هتف «علاء» في حدة:

- ماذا؟

كانت الإجابة مباغتة له تماما.. وفي تلك اللحظة أدرك أي

وسائل خبيثة تمتلكها تلك التركية الشقراء الفاتنة، التي تخفي مخالبها داخل قفازات حريرية، وأنها في سبيل أغراضها على استعداد لأن تفعل أي شيء وتطأ الآخرين بقدميها بلا رحمة.

واستدار إلى مديره في عنف قائلا: لا شك أنها قدمت لك أسبابا وجيهة لطلبها.. ولعلها لوحت بالاتفاق الذي أوشك أن يتم بينكما، والملايين التي تنتظرك من هذا التعاون.. فترى ماذا كان قرارك يا سيدي؟

بدا على المهندس «حسني» أنه يبذل مجهودا ليقول:

- أنت تعلم يا «علاء» أنني أقدرك وأعتز بك، كأفضل مهندس في شركتي، بل كابن، ولكنك لا شك تدرك الظروف الدقيقة التي تمر بها شركتي وحاجتنا إلى السيولة المالية و..

قاطعه «علاء» بابتسامة مريرة:

- لا داعي لأن تقول المزيد يا سيدي.. فقد أدركت قرارك.. ولن تراني في هذا المكان مرة أخرى حتى لا أعطل مشاريعك وأوقف تدفق أرباحك.

وانقلت مغادرا الحجرة، فصاح به «حسني»: انتظر يا «علاء»..

ولكن صيحته تبددت في الهواء.. وظهر «مؤنس» مقتربا بوجه مقطب وهو يقول: إن «علاء» صديقي، واني أقول إنه أخطأ مرتين، أولهما عندما رفض أن يبيع منزله بذلك الثمن الضخم، والثانية عندما تحدى هذه الفتاة وقد حاولت إقناعه بخطئه دون فائدة فهو لا يرى للنقود أي قيمة، ويرفض إعلان هزيمته بأي ثمن.

رمقه «حسني» في صمت وغادر الحجرة.. وغمغم «مؤنس» وعيناه لا تزالان شاخصتين عبر الباب الذي غادرته «شيرويت» قبل دقائق:

يا لها من فتاة بارعة الحسن، كأنها رمز للجمال الأنثوي المكتمل.

اقتربت «إيناس» بدهشة من «مؤنس» متسائلة: ماذا حدث.. ولماذا اندفع «علاء» مغادرا الشركة هكذا؟

ارتبك «مؤنس» لحظة ثم غمغم قائلا: سأخبرك بكل شيء.. عسى أن تتمكني من إقناع خطيبك بالخطأ الذي ارتكبه، فربما تكون هناك فرصة لإصلاحه وعودته إلى عمله.

* * *

دقت الأم صدرها بيدها في جزع هاتفة: ماذا تقول يا ولدي.. كيف يفصلونك من عملك.. أي خطأ ارتكبت؟

لم ينطق «علاء» بشيء.. ولاذ بحجرته في صمتٌ حزين:

تمدد فوق فراشه بملابسه وتطلع إلى السقف.. وبدا له وجه «شيرويت» يطل عليه من زاوية السقف ويبتسم في سخرية، فاعتصر جبهته بكفيه في ألم شديد.

لم يشعر بمرارة الهزيمة مثل تلك اللحظة..

لم يحس بسطوة المال وقوته في غير هذه اللحظة.

لم يشعر بالوهن مثلما أحس تلك اللحظة.. تجلت له قوة المال وما يمكن أن يفعله بالناس.. بدت له «شيرويت» وحشا له مخالب وأنياب، وقدرة على أن تسلب الآخرين قلوبهم وأرواحهم وليس فقط بيوتهم وأعمالهم.

وبقي حتى المساء دون أن يغادر حجرته..

وطرقت الأم بابه، ففتحه.. رمقته في صمت حزين وهي تقول له: إن صديقك «مؤنس» ينتظرك في الصالة ويود مقابلتك.

نكس «علاء» وجهه وهو يقول: اعتذري له.. فلا رغبة لي في لقاء إنسان..

قالت الأم في رجاء:

ـ إنه يقول إنه يمكنك العودة إلى عملك.. إذا وافقت على أن تبيع المنزل لـ«شيرويت»، وقد أرسلت صديقك لهذا الغرض.

تطلع «علاء» إلى والدته.. أحس أنه تلقى طعنة جديدة دامية.. شحب وجهه بشدة واندفع إلى الخارج، نهض «مؤنس» لرؤيته في ارتباك، وصاح «علاء» بوجه يفيض غضبا وثورة: أخبر هذه المغرورة المتعالية ذات المخالب أنني لن أخضع لرغبتها أبدا، ولن أبيعها منزل أبي حتى لو تسولت.

قال «مؤنس» في رجاء:

ـ أرجوك إهدأ يا «علاء».

وجاء صوت الأم من الخلف يقول: إنني موافقة على بيع المنزل يا ولدي، فأخبر تلك الفتاة بذلك.

صاح «علاء» في غضب وعنف:

ـ لا يا أمي.. لن نبيعه أبدا.

لمعت الدموع في عيني الأم وهي تقول:

ـ لا داعي لهذا العناد وهذه الحدّة يا ولدي.. إن هذه الفتاة

تبدو قادرة على أن تفعل بنا ما تشاء.. وفي المرة القادمة ربما تفعل بك ما هو أسوأ.

تكورت قبضة «علاء» في غضب، كأنه يوشك أن يلكم شخصا ما وصاح:

ـ لا يا أمي.. لن أعلن هزيمتي أمامها.. سأتحداها ولو كان الثمن حياتي.. لن أسمح لها أن تمس حجرا واحدا في هذا المنزل.. الموت عندي أهون من الخضوع لهذه الفتاة المغرورة.. اخبرها انني سأقوم بترميم المنزل ولو اضطرني الأمر لهدمه وإعادة بنائه ثانية.

القى «مؤنس» نظرة أخيرة إلى صديقه وغادر المكان صامتا وقد أدرك عبث وجوده. وعاد «علاء» إلى حجرته يلوذ بها.. وفي الأيام التالية أقبل عمال البناء ليعيدوا بناء ما هدمه «اللودر».. وراح «علاء» يحمل قطع الحجارة والملاط فوق كتفه مشاركا في العمل.. وثورة مكبوتة تتفجر في عروقه.. وعندما انتهى الترميم بعد أسبوعين بدا وكأن المنزل قد استعاد بناءه من جديد. وعاد «علاء» يلوذ بحجرته وصمته.

وبدا على الأم حيرة قاسية وغالبت ترددها.. طرقت الباب،

واقتربت من «علاء» متسائلة: هل ستبقى هكذا يا ولدي.. ألن تبحث عن عمل جديد؟

أجابها في حزن وألم:

ـ لا تخشي شيئا يا أمي.. فلدي بعض المال الذي ادخرته لزواجي، ويمكنني التصرف فيه وتأجيل زواجي بعض الوقت.

مسحت الأم دمعة ترقرقت في عينيها وقالت: لم أقصد ذلك يا ولدي، ولكني أرى أن بقاءك في المنزل بلا عمل يزيد من أحزانك وآلامك، والأفضل أن تبحث عما يشغلك.

أومأ «علاء» في انكسار قائلا:

ـ أنت على حق يا أمي.. كما أنني لم أذهب إلى خطيبتي للاطمئنان عليها.

وأضاف في حيرة: ويدهشني أيضا عدم مجيئها لزيارتي أو الاطمئنان عليَّ كل هذا الوقت، بعد أن علمت بفصلي، وقد كانت قادرة على التخفيف عني كثيرا.

وأزال «علاء» لحيته القصيرة النابتة التي لم يحلقها منذ بضعة أيام وبدل ملابسه.. وراقبته الأم صامتة.. بدا عليه كأنه

يستعيد شيئا من صفائه المفقود وروحه المرحة. وغادر «علاء» منزله.. وقاد سيارته إلى منزل «إيناس».

وفاجأته الزغاريد المنطلقة من شقتها المفتوحة على مصراعيها.. لمح أنوارا وزينات وجمعاً حاشداً.

اقترب مندهشا وتساءل إن كان أخت «إيناس» الصغيرة تخطب تلك الليلة؟

لمح عددا من زملائه في عمله السابق، ما أن شاهدوه حتى تهامسوا وهم يكتمون عباراتهم، دون أن يحاولوا الاقتراب منه.

أدهشه ذلك فتجاهلهم بدوره واخترق جموع الواقفين بحثا عن «إيناس». سمع امرأة تقول لزوجها حاسدة في همس: إنهم يقولون إنه عريس ثري جدا.. وأن العروسين سيقضيان شهر العسل في شقة العريس في باريس..

أجابها زوجها همسا: لقد سمعت أنه يقبض راتبه بآلاف الدولارات من الشركة التي يعمل فيها، وأنه ينوي إنشاء شركة خاصة به.

رمق «علاء» الرجل وزوجته في دهشة، وفكر كيف وافقت

والدة «إيناس» على زواج ابنتها الصغيرة التي لم تتعد السادسة عشرة من عمرها؟

واستدار ببصره نحو العروسين الجالسين فوق مقعدين مذهبين في صدر الصالة، وعيناه تخترقان جموع الحاضرين.

وباغتته الدمعة كما لو كانت طعنة نفذت في قلبه مباشرة.. عندما وقع بصره على العروس.

كانت هي.. «إيناس». وقد جلست إلى جوار شاب وسيم، وراح المأذون يعقد قرانهما.

مادت به الأرض.. أوشك أن يتهاوى.. ظن أنه يحلم.. يهاجمه كابوس.. أفاق على صوت المأذون وهو يقول: مبروك الزواج السعيد.

اندفع كالمجنون.. صرخ في المأذون: إنها خطيبتي.. كيف تعقد قرانها على شخص آخر.

شحب وجه «إيناس» عندما فوجئت به.. بدا عليها غضب حاد وألقت ببصرها إلى أمها مستنجدة على حين بدا برود مطبق على عريسها، كأن الأمر لا يعنيه.

واندفعت والدة «إيناس» صوب «علاء» وجذبته بعنف بعيدا وهي تقول له: لقد خلعت ابنتي دبلتك من يدها منذ أيام وقد حذرتك قبلها ولكنك لم تسمع نصيحتها ولم تقم ببيع هذا المنزل اللعين، فلا تلومن إلا نفسك ما دمت تهوى معيشة الفقر، أم ظننت أن ابنتي ستنتظرك العمر كله لتدخر ثمن شقة تتزوجان فيها.

لم يجد «علاء» ما يرد به.. خرس لسانه.. وواصلت الأم مهددة:

من الأفضل أن تنصرف دون ضوضاء أو مشاكل وإلا استدعيت لك الشرطة.

ألقى «علاء» نظرة دامية إلى «إيناس».. ولكنها تجاهلت نظرته وبادلت عريسها ابتسامة عريضة وقد تشابكت أصابعهما.

نكس «علاء» بصره.. جرجر قدميه خارجا.. أحس بقلبه ينزف حتى الموت.. وعيون الحاضرين تتابعه في صمت.

كان ما تبقى منه قد تبعثر.. تلاشى.. أحس أنه جثة هامدة.. تتحرك بقوة خفية لا يعلم مصدرها.

قـاد سـيـارته وهو لا يكاد يرى الطريق.. أحس بدموعه الساخنة تملأ مقلتيه فمسحها في غضب.. فقد كانت لا تستحق دمعة واحدة لأجلها.

ولم يشأ إعلام والدته وأخته بالأمر.. أخفى جراحه وهو يخطو داخلا حجرته وأغلق بابها خلفه.

انهار فوق فراشه.. ودفن وجهه بين الوسائد وأغمض عينيه كأنه يهرب من العالم كله. لا يصدق أن «إيناس» تخلت عنه بمثل تلك البساطة.. تخلت عنه كأنها تتخلى عن كابوس.. ظن أن حبه قد استقر في قلبها.. وأنها مستحيل أن تضحي به. وأن تهديدها لم يكن غير ثورة غضب لا تعبر عن مشاعرها الحقيقية.

كانت لا تهزل عندما خيرته بين النقود.. وبينه.

وقد اختارت.. ولم يعد الندم يفيد بشيء.

وتطلع إلى الدبلة الذهبية الراقدة حول أصبعه، فخلعها في عنف، ثم طوح بها من شباك الحجرة المفتوح.

* * *

مرآة الحقيقة

قالت الأم في حزن لـ «علاء»: أرجوك يا ولدي.. إنه يريدك في أمر مهم، وهو ينتظرك منذ أكثر من ساعة.

التقط «علاء» أنفاسا غاضبة وهو يسألها:

- ماذا يريد مني؟

أجابته في أمل ورجاء:

- لعله يرغب في عودتك للعمل.

هتف ساخرا:

- عملي.. وهل تظنين أنني سأعود إلى نفس المكان الذي فصلني منه سابقا. إنه حتى لو ترجاني لذلك فلن أفعل.

ربتت الأم فوق ذراع «علاء» كما لو كان طفلا، وقالت في حنو:

ـ ولكنه صديقك يا ولدي ويجب أن تقابله.. إنك منذ أسبوعين ترفض مغادرة حجرتك أو الحديث مع أي إنسان.. وإلى متى ستظل على هذا الحال؟

ومسحت دموعها مواصلة: أم هل تريدني أموت كمدا وحزنا وأنا أراك على تلك الصورة؟

بدا حزن كسير على وجه «علاء».. كان يحتمل أي شيء في العالم غير دموع والدته.. نهض فاحتضنها وربت عليها في رفق.. بدل ملابسه واتجه خارجا إلى الصالة وقد بدا بلحيته النابتة وملامحه المشوشة كأنه قادم من عالم آخر.

واحتضنه المهندس «حسني» في ود، وتأمله حزينا ثم قال: إنني أعترف بخطئي في حقك، وقد جئت لإصلاح هذا الخطأ.

أشاح «علاء» بوجهه بعيدا قائلا:

لن يفيد اعتذارك في شيء، ولن أعود لعملي أبدا.

أجابه المهندس «حسني»:

ـ أعرف ذلك، ولهذا أتيتك بعرض آخر.

وأخرج من جيبه ورقة مطوية، فردها أمام «علاء» قائلا: هذا عقد عمل في الخليج.. جئتك به من شخص أعرفه يمتلك

شركة هندسية هناك وسيكون راتبك هناك محترما وخلال عامين أو ثلاثة سيمكنك بما تدخره من مال أن تبدأ حياة جديدة بل ومشروعا هندسيا خاصا بك.

بدا على «علاء» كأنه يفيق من كابوس.. تنبه للكلمات وانحرفت عيناه نحو العقد.. كان اسمه مدونا فيه، وكان الأجر ضخما.. لم يحلم به أبدا.. تطلع إلى المهندس «حسني»، فربت فوق كتفه قائلا في رقة: لتعتبر أن هذا العقد تعويض عما أصابك من ضرر نفسي بسببي فأرجوك ألا ترفضه.. على الأقل من أجل والدتك وأختك. ومستقبلك أيضا..

لم ينطق «علاء» على الفور.. بدت في عينيه غمامة ضباب.. أحس في تلك اللحظة بمشاعر مختلطة.. رأى الفرحة في عيني أخته وأمه.. أحس بقليل من السرور يغزو مشاعره.. كان في ذلك العقد حل لكل مشاكله، كانت تلك فرصة لأن يبدأ من جديد. بعيدا عن كل الأحزان وقد جاءته في وقتها المناسب تماما.

مد يدا مرتجفة ليلتقط عقد العمل.. وفتح ذراعيه محتضنا المهندس «حسني» كصديق قديم.

وخلال أيام أنهى إجراءات السفر.. وعانق والدته وهو يقول لها: لولا الظروف ما تركتك وحدك أبدا يا أمي.

فقبلت جبهته وهي تجيبه:

- لا تخشَ شيئا يا ولدي.. اذهب في رعاية الله وبركته.

قال في رجاء: اعتني بـ«هويدا».. يجب ألا يعطلها شيء عن دراستها فقد تبقت أسابيع قليلة على امتحاناتها.. أريدها أن تدخل كلية الهندسة.

- بإذن الله يا ولدي.

تعقد حاجبا «علاء» في صرامة وقال: لقد حررت مذكرة في قسم الشرطة بعدم تعرض احد من موظفي «شيرويت» لكما وللمنزل.

ربتت الأم على جبين ابنها قائلة:

- لا تشغل بالك بشيء يا ولدي.. رعاك الله.

عانق «علاء» والدته مرة أخرى.. ومد يده في رقة يربت فوق كتفي أخته.. مسح بكفيه دموعها وقال باسما: أريد أن تكون ا بتسامتك هي ما تودعينني به.. لا دموعِك.

فابتسمت « هويدا » برغمها ابتسامة حزينة.. في تلك اللحظة فقط أدركت مغزى المشاعر التي يحملها أخوها لذلك المكان..

كان على استعداد لأن يفعل أي شيء ولا يضحي بمنزل أبيه الراحل.. أن يفقد عمله ويتغرب عن وطنه وأخته وأمه.. أن يجتر مشاعر الغربة وأوجاعها وحيدا.. دون أن يفكر في الحل الأسهل الذي يأتي له بالملايين.. وكأنه يؤكد لها أن العالم كله لا يساوي ذلك المنزل الذي يضمهم معا.

وعندما استقر « علاء » داخل سيارة « التاكسي » التي حملت حقائبه الصغيرة، غرق في أفكاره.. ها هو يفعل ما كان يرفض من قبل.. بدأ حياته في بلاد بعيدة.. يتغرب ويبتعد عمن يحب لأجل المال.. ليس لأجله. بل لأجل أسرته الصغيرة.

وأصابه ذلك الخاطر ببعض العزاء..

وحمل حقائبه إلى داخل المطار. وفاجأه صوت من الخلف يناديه باسمه.. صوت مألوف.. واستدار في دهشة ليجد « مؤنس » يدفع أمامه بعض حقائبه، وتساءل « علاء » في دهشة لصديقه: هل انت مسافر؟

أجابه « مؤنس » بفرحة:

-إلى الخليج.. جاءني عقد عمل هناك.. وأنت؟

-إلى الخليج أيضا.

-يا لها من صدفة.

-لقد أتاني المهندس «حسني» بعقد العمل.

تساءل «مؤنس» في دهشة:

-من العجيب أنه لم يخبرني بذلك.. ما هو اسم الشركة التي ستعمل بها؟

أخرج «علاء» عقد العمل من جيبه، وألقى إليه نظرة قبل أن يقول: إنها تدعى الشركة العربية للإنشاءات.

-هذا غريب.. إنها نفس الشركة التي سأعمل بها.

-يا لها من مصادفة.

-كنت أظن أنك لن تقبل أي عرض تقدمه هذه الفتاة سليلة الأتراك.

فاجأت العبارة «علاء»، فغمغم في ذهول:

-من تقصد؟

أجابه «مؤنس» في اهتمام:

- « شيرويت » . . إنها صاحبة الشركة التي تحمل عقد العمل منها.

- ماذا؟

انتفض « علاء » في ذهول . . أدرك فجأة لعبة « شيرويت » الجديدة . . أرادت إبعاده عن مصر بأكملها، لكي تحصل على ما فشلت في الحصول عليه بوجوده.

وزمجر في غضب حاد قائلا: كيف يفعل بي المهندس « حسني » ذلك . . كيف يفعل ذلك بي؟

أجابه « مؤنس » في صدق:

- صدقني إنه لا يعرف أن الشركة العربية ملك لـ « شيرويت » . . لقد اكتشفت ذلك بالمصادفة، فقد جاءنا المدير القانوني لشركتها بالعقود وقال إنها تخص صديقاً له يمتلك شركة هندسية في الخليج، فترجاه المهندس « حسني » في عقد خاص بأجر مضاعف، ويبدو أنه كان لأجلك، ولم أكتشف أن هذه الشركة ملك لـ « شيرويت » إلا هذا الصباح، من صديق خليجي أجريت معه محادثة هاتفية ليكون بانتظاري في المطار، فأخبرني بالحقيقة.

حزَّ «علاء» على أسنانه في غضب حاد قائلا:

ـ إذن فقد فعلتها هذه المخادعة.. ولكني سأحبط مخططها.

وألقى بحقائبه على الأرض، واندفع مهرولا مغادرا المطار.. دون أن يعبأ بنداءات صديقه.

واندفع داخلا مكتب «شيرويت» وعيناه تنطقان بالشرر. وصرخات السكرتيرات في الخارج تستغيث في طلب رجال الأمن.

فوجئت «شيرويت».. بدا عليها الذهول.. نطقت عيناها بدهشة حقيقية.. شملت جسدها رجفة لم تتعودها أبدا وداهمها خوف لا حد له.

أغلق «علاء» باب المكتب من الداخل، وتقدم تجاه «شيرويت» وأنفاسه تتصاعد في ثورة وقد بدا كأنه موشك على عمل جنوني.

فارتجفت أصابعها.. لأول مرة يشملها الخوف بمثل ذلك الشكل.. كانت تظن أن المال هو حمايتها وسندها.. ولكن ها هو كل مالها ونفوذها لم يمنعا ذلك الشاب من اقتحام قلعتها الحصينة مرة أخرى. ها هما وحدهما في مكان مغلق، وهي بلا

حماية.. كأنهما صائد وفريسته في مكان مغلق، حيث يستحيل على الفريسة الهرب والفرار.

وواصل «علاء» اقترابه منها، غمغم في صوت محموم غضبا: هل ظننت أنك ستتمكنين من خداعي أيتها الذئبة الماكرة.. أعترف أنك خططت جيدا لإبعادي عن «مصر» بتلك الحيلة البريئة في مظهرها والخادعة في حقيقتها.. ولكن القدر شاء أن يحبط مكرك، فعدت إليك لأخبرك أنه لا شيء سيبعدني عن «مصر»، حتى لا أترك لك الفرصة أبدا لكي تحققي ما تريدين.. لن تحصلي على منزل أبي.. ولن أمكنك من الفرصة لتحتفلي بانتصارك أبدا.

ارتجفت «شيرويت» أكثر.. أحست بضعفها وقلة حيلتها. لأول مرة في حياتها يخالجها شعور بالضعف والخوف.. تصاعدت خبطات قبضات حراس الأمن على باب مكتبها المغلق، ولكن «علاء» لم يعبأ بهم.. واصل تقدمه نحوها، توقف أمامها لا يفصله عنا غير المكتب الخشبي.. بدا في عينيها ماردا عملاقا قادرا على أن يفعل بها ما يريده، وغمغم يقول لها بأنفاس لاهثة محترقة:

لو أنك كنت رجلا، لأمكنني تصفية حساباتي معك بالطريقة المناسبة وتلقينك درسا لا تنسينه.. ولكنك للأسف فتاة لا يليق بي أن أعاملك بالطريقة التي تستحقينها مهما كان سوء أخلاقك وطباعك.. ومهما كان ما تستحقينه من تأديب وتهذيب. ولكني جئت إليك لأضع أمام عينيك مرآة الحقيقة.. لأخبرك بحقيقة ذاتك التي ترينها الآن واضحة دون قناع.. فأنت لست سوى فتاة مغرورة تافهة مات قلبها واختنقت مشاعرها منذ زمن.. قتلها المال الكثير الذي حصلت عليه دون تعب أو مشقة، فرحت تتحدين وتذلين به الأبرياء والضعفاء، ومن خلقهم الله بلا مال، ولعلك تكتشفين حقيقتك الآن.. فهؤلاء الذين يحنون رؤوسهم لك احتراما وينفذون كل رغباتك، ما كانوا ليديروا وجوههم صوبك لولا مالك. هؤلاء الذين يعتبرون إرادتك أمرا ينفذونه دون تفكير، ما كنت ستحظين باحترامهم ولا كلمات نفاقهم دون مالك. هؤلاء الذين يظهرون لك محبتهم وحبهم الجارف، كنت سترين كراهيتهم واحتقارهم لولا مالك.. هذا المال الذي جعلك تتحولين إلى وحش يبدو جميل الصورة فاتن الهيئة.. ولكن

حقيقته تختلف. فهو من الداخل مليء بالظلام والحقد والكراهية.. وحش بلا قلب.. بلا مشاعر.. بلا آدمية، فيا لسوء حظ ذلك الرجل الذي ستكونين زوجة له يوما ما.

أوشكت «شيرويت» على الانهيار.. تضاءلت في مقعدها.. بحثت عيناها عن ملجأ.. تمنت لو استطاع من يدقون بابها تحطيمه لتستعيد قوتها.. فتتنفس وتحيا من جديد.. ولكن «علاء» واصل اقترابه.. دار حول المكتب.. فالتصقت هي بالحائط بحثا عن مهرب.. توقف على مسافة شبر واحد منها.. أمكنها أن تشم رائحة عرقه المختلط بالتراب.. أن تتنشق رائحة أنفاسه الغاضبة الثائرة.. تحترق بلهيب عينيه.

ارتجفت أصابعه وهي تمتد لأعلى.. نحو عنقها الجميل، كأنها تود أن تخنقها.. أن تسلب حياتها لتريح العالم من شرها.. ولكن نفس الأصابع تراخت.. وبدت في عيني صاحبها نظرة انتصار، وغمغم قائلا لها: لعلك أدركت حقيقة نفسك الآن.. فكل مال العالم لن يمنحك قلبا لا تملكينه.. ولا مشاعر إنسانية تفتقدينها.. ولا شجاعة تنقصك.. ولا احتراما للذات.. احتراما حقيقيا غير زائف.

واستدار وهو يخطو بعيدا عنها.. اقترب من الباب واستدار صوبها وهو يدير مفتاحه قائلا: لو أنك كنت رجلا لزهوت بانتصاري عليك.. ولكن أخلاقي تمنعني من الشماتة في فتاة مهما كانت.

وانفتح الباب فاندفع العشرات إلى داخل الحجرة..

وخطا «علاء» وسطهم.. لم يجرؤ أحد على اعتراضه.. بدوا جميعا مسلوبي القوة وهم يشاهدونه يغادر المكان برأس مرفوع.. في ثقة لا مثيل لها.. فتعلقت أبصارهم جميعا بـ«شيرويت» في ذهول وعدم تصديق.

تلك التي كانت ربة الجمال والقوة في عيونهم.. شاهدوها ترتجف.. ترتعد.. تصرخ عيناها ذعرا وألما.. توشك عيناها أن تنفجرا بالدموع.. تكاد ساقاها تتهاويان بها.

واندفع في اللحظة ذاتها مدير أعمالها وهو يقول في انتصار:

لقد أفلحت خطتنا أخيرا واستأجرنا شاحنة ضخمة صدمت ذلك المنزل كما لو أن الأمر مصادفة، فانهار كما لو كان بيتا من الرمال. ولولا أن سارعت تلك المرأة وابنتها بالخروج منه في اللحظة المناسبة، لانهار فوق رأسيهما.

تجمدت نظرات «شيرويت».. بدت فوق شفتيها صرخة حبيسة.. ثم أطبقت عينيها في وهن، وانهارت على الأرض دون حراك.

* * *

قلب يستيقظ

راح الصوت يدوي في أذني «شيرويت» في عنف وبلا انقطاع، في صليل مثل قرع الأجراس:

ـ لست سوى فتاة مغرورة تافهة.. مات قلبها واختنقت مشاعرها منذ زمن.. هذا المال جعلك تتحولين إلى وحش بلا قلب.. وكل مال العالم لن يمنحك قلبا لا تملكينه ولا احتراما للذات. فيا لسوء حظ ذلك الرجل الذي ستكونين زوجة له يوما ما.

صرخت في ألم.. ووضعت كفيها فوق أذنيها كأنها تمنع ذلك الصوت عن اختراقهما.. ولكن الصوت راح يدوي من داخل أعماقها.

تفجرت دموعها أنهارا.. لم تبك منذ سنوات بعيدة.. منذ وعت العالم وتشكل وعيها.. منذ تحول قلبها إلى صخر..

إلى سجن أغلقت كل أبوابه وحبست مشاعرها بداخله.

تقلبت فوق الفراش.. أحست أن جسدها يشتعل.. اعتدلت متأوهة في ألم.. وقع بصرها على صورتها الواهنة الشاحبة في المرآة.. مرت أيام طويلة وهي ترى نفس الصورة المريضة.

جاءها صوت «علاء» من داخلها يدوي قائلا: جئت إليك لأضع أمام عينيك مرآة الحقيقة.. حقيقة ذاتك.

صرخت في لوعة وهي تخفي وجهها بكفيها..

رددت الحوائط صرختها بلا مجيب.. بلا رد..

ليس هناك غير الخدم في الخارج.. كانت موقنة أن احترامهم لها زائف وخشيتهم مصطنعة.. لولا المال الذي تملكه وتسير به حياتهم، ما أحضر لها أحدهم كوب ماء.

لا أحد في العالم يحنو عليها.. لا قلب يدق لأجلها.. لا عين تدمع لأحزانها..

جدتها هي الوحيدة التي تبقت لها في هذا العالم.. منحتها الثروة والمال والقوة.. فلم تعطها في المقابل غير الجحود ونكران الجميل.. استولت منها على كل ما تملك عندما شعرت بلحظة ضعف منها.. سلبتها كل مالها.. وألقت بها في بيت

للمسنين.. مقعدة مشلولة، تجتر أحزانها وتموت في بطء دون أن تجد قلبا رحيما في شيخوختها يرأف بها.

طالعتها صورة جدتها من ركن الحجرة وقد بدا كأن عيني الجدة تحاصرانها.. تخنقان أنفاسها، صرخت «شيرويت» فيها بجنون: لماذا تنظرين إلي بهذه الطريقة.

لماذا تسقطني نظراتك في بحار الندم والعذاب كل لحظة.. لماذا تلومينني وأنت من أرضعتني منذ طفولتي تلك المبادئ.. كنت أبي وأمي بعد وفاتهما.. أخبرتني أن القوة الحقيقية هي المال.. المال هو القوة التي تحني رؤوس الناس وتعفر جباههم بالتراب.. جعلتني أحتقر كل شيء ولا أبالي بشيء سوى المال.. وفي سبيله كنت على استعداد لأن أفعل كل شيء.. أن أنشب مخالبي في أي قلب.. وكان لا بد أن يأتي الدور عليك يوما ما لتذوقي من نفس الكأس، التي طالما سقيت الآخرين منها.

غادرت فراشها.. حملتها ساقاها في وهن.. أحست بالاختناق.. اندفعت إليها إحدى الخادمات متسائلة بلهفة: هل أنت في حاجة إلى شيء يا سيدتي.. هل أستدعي لك الطبيب؟

صرخت فيها بجنون: أغربي عن وجهي.. لا أريد أن أرى أحدا.

تهالكت فوق أقرب مقعد.. وتساءلت في حزن ممعن: لماذا تشعر بمثل ذلك الضعف والألم.. ما الذي جعل أحزانها هادرة كالشلال.. عاشت عمرها كله تفعل ما تريد دون أن يطرف لها جفن.. تسحق من يقف في طريقها، تطأ من يعترضها.. تهشم من يتحدى إرادتها، فما الذي جرى لها هذه المرة؟

كان هو أول إنسان يقف في وجهها..

أول رجل يتحداها. ما أكثر الرجال الذين مرقوا في حياتها.. عشرات تهافتوا عليها كما تتهافت الفراشة حول شعلة لهب. خدعهم جمالها. ذابوا فيها حبا وهياما. أثرياء ومشاهير ونجوم، ارتموا تحت أقدامها. قدموا إليها قلوبهم فوق أطباق من ذهب.. أخلصوا في حبها.. ولكن قلبها لم ينبض بأي مشاعر لأحدهم.. أمتعها أن تحطمهم واحداً وراء الآخر.. تجتذبهم إلى جنتها البراقة قبل أن تلقيهم في أتون جحيمها.. ولكن «علاء» كان مختلفا عنهم جميعا..

لم يكن ضعيفا أو هشا أمامها.. الوحيد الذي تحدى إرادتها، قال لها: لا، دون أن يهاب مالها وقوتها، دون أن يضعفه جمالها، وهو وحده الذي رأى الوحش بداخلها، ولم يخدعه جمالها..

لا أحد غيره الذي جعلها تشعر بضعفها وتفاهتها.. وضع مرآة أمام عينيها.. مرآة الحقيقة، وأجبرها على أن تلقى نظرة إلى حقيقتها.

وما أبشع ما رأت.

غادرت مقعدها.. أطلقت ضحكة مريرة أشبه بالبكاء.. اقتربت من «البيانو» الكبير الثمين.. تذكرت سنوات كثيرة لم تمس أصابعها مفاتيحه.

كانت أنغامه تسحرها.. ترقص مشاعرها، تذيب قلبها.. تجعلها تحلق في آفاق وسماوات بعيدة.. كانت أنغامه تنبت في قلبها ألحانا شجية..

كان هو وحده الذي باحت إليه بأسرار قلبها.. يوم أن أحبت شابا رقيق الحال. أسرها بلطفه ورقته.. يومها لم تعر فوارق المال والمستوى الاجتماعي أي اهتمام.. كانت صغيرة لم تتعد

الخامسة عشرة بثت لأصابع «البيانو» بهمسات قلبها.. نقشت بمفاتيحه كلمات الحب في قلبها.

ولكن ما كان أسوأ العاصفة التي واجهتها بها جدتها عندما اكتشفت الحقيقة.. لأول مرة تعرف منها أن المال يصنع السدود والحواجز ولا يهدمها.

يباعد بين البشر ولا يقربهم...

كان والد حبيبها موظفا لدى جدتها فطردته شر طردة.. حمل متاعه القليل وغادر البلاد بلا رجعة.

ومن يومها أغلقت قلبها.. وأماتت مشاعرها.. وظل «البيانو» هو الشاهد الوحيد على ما جرى.. شاهدا أخرس أشبه بجثة هامدة.

جلست إلى مقعده.. مدت أصابع مرتجفة إليه ودقت أصابعه، صدر عنه صوت ضئيل.. خيل لها أنه يئن مثلها.. يتوجع.. يبكي.. كأنها تعيد إلى مسامعه ذكرى حزينة.

مرت أصابعها كالمحمومة فوقه.. راحت تدق أصابعه في عنف.. تصاعدت الأنغام عالية صارخة كـ«سيمفونية» مجنونة.. ولكن الدقات رقت بعد لحظات.. انبعثت أنغامها

الشجية رقيقة رقراقة.. كأنها أنغام السحر.. شعرت بقلبها يهدأ.. بأنفاسها اللاهثة تتباطأ وتنتظم.. وبجراحها تندمل وتكف عن النزيف.

أفاقت على دموعها الساخنة.. أعادت لها دقات «البيانو» ذكريات قديمة حزينة.. اكتشفت أن الذكرى لا تزال راسخة في قلبها.

لا يزال قلبها ينبض.. لا تزال مشاعرها جريحة برغم كل تلك السنين.

غادرت «البيانو» في وهن وهي تحس بجوع شديد.

جلست إلى مائدة العشاء.. أصرت على أن يكون على ضوء الشموع.. كانت جدتها تجلس إلى الطرف الآخر من المائدة الكبيرة.. تأكلان وحدهما في صمت وكل منهما غارقة في عالمها.

كانت تشعر بالوحدة وقتها.. وتضاعفت وحدتها في تلك اللحظة.

لم تحتمل منظر المقعد الخالي أمامها.. أصابها ارتعاد وهبت واقفة.. هرعت الى حجرتها وارتدت ملابسها.

قفزت إلى سيارتها وقادتها كالمحمومة.. أوقفتها أمام بيت المسنين.. فوجئت المشرفة بها.. قالت لها «شيرويت» في صوت محموم: أريد رؤية جدتي حالا.

أومأت المشرفة برأسها موافقة، وجاءت بعد قليل تدفع العجلة المتحركة، وقد جلست الجدة فوقها، كانت أشبه بالجثة البادرة، لا تتحرك لا تنطق.. ولا تسمع.. بالكاد ترى وتعي.

ما أن وقع بصرها على «شيرويت»، حتى أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى.. معلنة رفضها لرؤيتها.

كانت تلك هي الحركة الوحيدة القادرة عليها.. لو كانت تملك القدرة على الصراخ لصرخت.. لرفضت مجرد وجودها أمامها..

وأحست «شيرويت» بسكين يغوص في قلبها..

ها هو جرمها الأكبر ماثلا أمام عينيها، ذنبا يستحيل غفرانه.. فكيف فعلت بجدتها ما فعلت؟

اقتربت منها.. واجهتها.. انحنت على يدها.. رفعتها بين كفيها.. قبلتها.. غسلتها بدموعها.. تجمعت في عينيها أحزان العالم كله.

حدقت فيها جدتها في صمت.. عيناها خرساوان لا تنطقان.. همست لها «شيرويت» وهي لا تزال تقبل كفيها: سامحيني يا جدتي.. اغفري لي كل ما فعلته بك.. كنت قاسية القلب متحجرة المشاعر.. ظننت أنني قادرة على هزيمة العالم كله بالمال..

وهانذي آتي إليك كسيرة القلب، دون أن يمنحني كل ذلك المال أي عزاء.. جئت إليك يا جدتي لأني أدرك أنه برغم كل ما فعلته بك فإن قلبك هو الوحيد الذي سيحنو علي ويتسع لي.. هو الملجأ لي والملاذ من كل متاعب العالم.

واستدارت إلى المشرفة المبهوتة الواقفة خلفها تراقب المشهد الأليم.

لم تخجل «شيرويت» من دموعها وهي تقول لها: سوف أعود بجدتي إلى بيتها.. وهي لن تخطو إلى هذه الدار مرة أخرى أبدا.

وقادت العجلة المتحركة، واحتضنت جدتها وحملتها إلى داخل سيارتها. طوت العجلة في حقيبة السيارة.

وعندما مددت الجدة فوق فراشها السابق.. لمحت طيف

ابتسامة شاحبة فوق شفتي الجدة.. بدا وكأن شرايين الحياة عادت تتدفق إلى الجسد العليل الواهن.

امتدت يد «شيرويت» إلى سماعة الهاتف، أدارت رقما.. وعندما جاءها صوت مدير أعمالها قالت له لاهثة: غدا توقفون هدم بقية منازل حي القلعة التي اشتريناها.

وأتاها صوت مدير الأعمال المندهش متسائلا: ولماذا يا سيدتي.. إن هذا سيعطل مشاريعنا، فنحن مرتبطون بموعد تسليم الإنشاءات الجديدة لأصحابها في وقت محدد وأي تأخير سيجعلنا نخسر الملايين.

ولكنها أجابته في إصرار: نفذ ما أقوله دون مناقشة، مهما كانت الخسارة، وانتظر تعليماتي الجديدة خلال يوم أو اثنين، فسوف أستبدل مشروعنا بأشياء أخرى.

وأعادت السماعة مكانها..

والتقطت أنفاسها في ارتياح.

وأحست أن قلبها يهدأ ويستريح.. وأن مشاعرها تصفو وترق.. فأغمضت عينيها واستسلمت لنوم عميق.. حرمت منه ليالي طويلة سابقة.

اعتراف

دق المهندس «حسني» حافة مكتبه في غضب، وهب واقفا وهو يقول: ما الذي ألم بك يا سيدتي.. هل هي حيلة جديدة من قائمة حيلك التي تتلاعبين بها بالأبرياء؟

حدقت «شيرويت» تجاهه في صمت وانكسار.. لم تجد ما تقوله، فغمغم في غضب أشد: لو كنت أعلم أنك صاحبة تلك الشركة التي أعطيت عقدها لـ«علاء»، لقطعت يدي قبل أن أمدها إليه، حتى أمنعك من أن تفعلي، ما فعلته بوالدته وأخته.

وعلا صوته أكثر مضيفا: أما أعمالنا المشتركة فليست لي حاجة بها حتى لو خسرت الملايين.. فقد كان من الخطأ أن أتعاون معك منذ البداية.. وهأنذا أعلن انسحابي ورفضي لأي عمل معك مهما كان قدر خسارتي.

وترقرقت الدموع في مقلتيها، فحدق فيها « حسني » بدهشة.. لم يكن يظن أنها قادرة على البكاء كبقية الناس.

بدا واضحا أنها لا تقول غير الصدق.. لم تكن دموع تماسيح بأي حال.

راقبها في صمت وهو لا يجد ما يقوله، همست « شيرويت » في ألم: كل ما أطلبه منك أن تدلني على مكان عمل « علاء » الجديد.. أريد أن أذهب إليه وأعتذر عن كل ما فعلته.

حدجها « حسني » بنظرة صامتة طويلة، كأنه يتساءل إن كان الصدق هو ما تقوله.. وحسم تردده وقال أخيرا: لقد ساعدته على الالتحاق بشركة صغيرة تعمل في الصحراء تحت ظروف قاسية. وقد تسلم هناك شقة صغيرة، ليعيش فيها مع والدته وأخته.

مد إليها ورقة بالعنوان، فاحتضنتها في كفها كأثمن ما تكون..

وانفلتت جارية إلى سيارتها.. وقادتها كالمحمومة إلى صحراء البحر الأحمر..

استغرقت الرحلة أكثر من خمس ساعات.. وهي لا ترى غير الرمال والأشجار القصيرة البائسة بلا ثمر.. توقفت أكثر من مرة لتسأل بدويا أو عاملا بمحطة بنزين عن الطريق الصحيح.

تبدى لها موقع المشروع أخيرا.. عدد من المباني الصغيرة في أطراف مدينة «الغردقة»، تحيطها الرمال الصفراء الموحشة من كل جانب، وتلقي عليها شمس الظهيرة بشواظ من نار توشك أن تشوي حجارتها.

اقتربت من بعض العاملين بالمشروع، كان أحدهم يعطيها ظهره ويضغط فوق جهاز شديد الحركة لشق طريق بين الصخور.. وقد راح الجهاز العنيف يرجه رجا..

عندما أحس بحركتها أوقف الجهاز واستدار إليها وهو يجفف عرقه بكم سترته.

كان هو.. «علاء».. وقد لوحته شمس الصحراء فزادته سمرة.. وزاد الجهاز القاسي من خشونة يديه اللتين ظهرت فيهما آثار تشققات واضحة.

حدق فيها «علاء» صامتا.. لم يبد عليه أي أثر للمفاجأة.. وكأنه كان موقنا أنها قادرة أن تصل إليه في أي مكان في

العالم.. شاهدت ما بين عينيه تقطيبة حزن عميقة.. أما العينان فكان يلتمع فيهما ألم جلي.. وفي لحظة اختفت من عينيه مشاعره الأليمة، وحلت محلها نظرة ساخرة وهو يقول لها: أحسب أن العالم لا يمكنه أن يتسع لنا معا.. فأنت قادرة على بلوغ أهدافك بكفاءة مدهشة، فاخبريني كيف اهتديت إلى مكاني هذه المرة؟

همست في صوت خفيض قائلة:

ـ لقد أبلغني بالعنوان المهندس «حسني».

واصل في سخرية أقسى:

ـ ترى بماذا خدعته هذه المرة؟

ـ لم أقل له غير الصدق.

ـ الصدق.. يبدو لي أنها كلمة بعيدة تماما عن عالمك.

ـ لن ألومك في كل ما قلته وما ستقوله.

ـ ليت اللوم يتساوى مع كل ما فعلته بي وأمي وأختي.

ـ جئت لأعتذر عن كل ما فعلته بحقكم؟

ـ أنت.. تعتذرين؟

ـ أعرف أن كلماتي قد تبدو في عينك محاولة أخرى للخداع، ولكن شيئا وحيدا سيثبت لك أنني صادقة فيما أقوله.

تعقد حاجبا «علاء» وقال ساخرا: دعيني أخمن حقيقة السبب الذي جاء بك هذه المرة.. إنها أرض منزل أبي الذي هدمته.. ولكن الهدم لم يحقق كل أغراضك.. فلا تزالين في حاجة إلى شراء أرضه.. أليس كذلك؟

قالت في صدق:

ـ لا.. صدقني.. لم أعد في حاجة إلى هذه الأرض.. ولا لأي أرض أخرى في حي القلعة.. وقد أوقفت مشروعي بأكمله، وطواه النسيان منذ تلك اللحظة.

رفع حاجبيه بدهشة قائلاً:

ـ هذا مذهل.. تطور غريب، فمن كان السبب يا ترى.. هل أوقفت الحكومة ترخيص المشروع أم أن مهندسيك وجدوه عديم الجدوى ولن يربح الملايين المنتظرة من ورائه؟

تطلعت «شيرويت» إلى عينيه في شوق ولهفة ورجاء وهمست في صوت لا يكاد يسمع:

ـ إن السبب الوحيد لإيقافي هذا المشروع.. هو أنت.

ونكست بصرها.. حدقت في الرمال الصفراء المسالمة، وقالت في صوت جريح: كانت كلماتك مثل ضربة موجعة أعادت إليَّ ذاكرتي.. وقلبي ومشاعري.. أعادت إليَّ آدميتي وإحساسي بالآخرين وخلصتني من سطوة المال وشره.. جعلتني إنسانة أخرى تشعر بآلام الآخرين.. تحزن لأحزانهم وتتألم لآلامهم.. وتفرح لفرحهم.. أعادت إليَّ كلماتك إنسانيتي المفقودة.

ورفعت إليه عينين مغرورقتين بالدموع.. دموع متلألئة كالماسات.. وأضافت في ألم: لو أنك رغبت في أن أعيد بناء منزل أبيك الراحل على نفقتي فسأفعل، لو أنك طلبت مني إعادتك إلى عملك فسأفعل، لو أنك أمرتني بإنشاء شركة هندسية خاصة بك فسأنفذ في الحال.. وإذا أردت تعويضا عن كل مضايقاتي لك ولأسرتك فسأمنحك شقة فاخرة في أي مكان تطلبه، أو أي مبلغ من المال، فسأمنح لك فورا حتى لو طلبت أن تعود إليك «إيناس».. فسأفعل أيضا.

غمغم «علاء» في ذهول: «إيناس»؟

عضت « شيرويت » شفتها السفلى بأسنانها في قسوة وألم قبل أن تجيبه:

- نعم فلم يكن زوجها غير أحد مهندسي شركتي.. فقد بحثت عن كل ما يحطمك ويشعرك بالهزيمة لتبيع لي منزل أبيك وأرضه.. وعندما علمت بالخلافات بينك وبين خطيبتك السابقة وتطلعاتها المادية، بعثت إليها بهذا المهندس الوسيم، الذي راح يحكي لها عن شركته الخاصة التي ينوي افتتاحها ومرتبه الذي يتجاوز بضعة آلاف من الدولارات كل شهر وشقته في باريس فابتلعت الطعم بسبب غبائها ولهفتها للمال ووجدت في ذلك العريس صيدا سمينا وتزوجته قبل مرور عدة أيام.. وبعدها اكتشفت الحقيقة.. وهما يوشكان على الطلاق خلال ساعات.

غمغم « علاء » في ذهول:

- يا إلهي.. لا أكاد أصدق.. أنت فعلت كل ذلك.. كنت تتحكمين في مصائر الناس بمثل هذه البساطة؟

قالت « شيرويت » في ألم:

ـ لو رغبت في عودتها إليك، فلن أتوانى عن فعل المستحيل لذلك.

هتف في استنكار وغضب:

ـ العودة إليّ.. أي عودة وقد باعتني «إيناس» عند أول مشترٍ دفع لها مهرا أكبر.. صدقيني، إنني لست نادما على ما حدث.. بل لعلني أشكرك، لأنك أظهرت لي حقيقة هذه الفتاة التي كانت غائبة عن عيني، وقد تخلصت من كل مشاعر تربطني بها لحسن الحظ.

ووقفا لحظة يترامقان في صمت، ونكست «شيرويت» عينيها كأنها تعلن هزيمتها.

وقال «علاء» يسألها: ما الذي أتى بك الآن إليّ؟

أجابته دون أن تجرؤ على مواجهة عينيه؟

ـ جئت لأعتذر عن كل ما فعلته معك.. بل لعلني جئت أشكرك أيضا.

تساءل في دهشة:

ـ تشكرينني؟

رفعت إليه عينين في لون مياه البحر الصافية قائلة:

ـ نعم.. لولاك من يدري إلى أين كان سينتهي بي المطاف.. لا يسعني غير شكرك، لأنك قلت لي «لا».. لأنك تحديتني وصمدت أمامي.. لأنك حطمت كبريائي الزائفة، وأخيرا لأن كل أموالي ونفوذي ومصادر قوتي لم ترهبك، فأكدت لي أنني كنت أحتمي بقوة زائفة.

تطلع إليها «علاء» في إشفاق أليم وهي تمسح دموعها بمنديلها.. وبدت له «شيرويت» لحظتها نموذجاً للانكسار الروحي والهزيمة.

أشفق عليها.. تألم.. تمنى لو كان قادرا على أن يمسح دموعها.. لم يحتمل المشهد الحزين أمامه فقال في صوت يفيض رجاء:

ـ أرجوك كفى.. لا أحتمل دموعك.

تطلعت إليه «شيرويت» وشفتاها ترتعدان.. بدت وكأنها تصارع ذاتها لأمر ما.. حدقت في عينيه.. تتأملهما.. كأنما تنجذب إليهما بقوة لا تستطيع الفكاك منها.. كأنهما بوصلتها ومرشدها. وهمست في صوت محموم وكل جزء فيها يرتعد: لم يعد هناك سوى اعتراف أخير.. فقد جئت إليك..

لأنني.. لأنني..وارتعد صوتها وماتت بقية عبارتها.. وبدت كأنها غير قادرة على الاعتراف، فانفلتت مبتعدة مهرولة دون أن تكمل عبارتها المبتورة.

كان موقنا أنها موشكة على اعتراف أخير لم تجرؤ على البوح به.

أوشك أن يندفع وراءها.. أن يستمهلها.. خشي عليها من القيادة وهي بمثل ذلك الانهيار.. كأنها صارت تخصه، تربطه بها علاقة لا تنقض. كأنما صار أمرها أهم ما يعنيه.

لمح أخته تغادر مسكنهم الجديد الصغير، حاملة إليه شطائر الطعام. توقفت أخته أمام «شيرويت».. كانت تعرفها من صورها التي نشرتها الجرائد مؤخرا بمناسبة مشروعها الضخم في حي القلعة.

حدقت «هويدا» في «شيرويت» ذاهلة ثم تحول ذهولها إلى غضب عارم، وصرخت فيها، ما الذي جاء بك إلينا مرة أخرى أيتها النمرة المفترسة التي لا قلب لها.. كفى ما سببته لنا من آلام وتعاسة وأحزان.. اخرجي من حياتنا إلى الأبد.. فإننا

جميعا نكرهك.. نكرهك ونكره مالك.. أكثر مما نكره أي شيء آخر في العالم.

وانفجرت «هويدا» في بكاء مرير.

واندفعت «شيرويت» كالمجنونة إلى سيارتها.. وقادتها فاندفعت السيارة وهي تزأر فوق الطريق كوحش جريح يعود كسيرا إلى عرينه.

وأفاق «علاء» من صدمته.. أسرع إلى أخته.. ارتمت بين ذراعيه باكية في حرقة.. ربت فوق وجنتها مشفقا وهو يمسح دموعها بكفيه.

وتعلق بصره في ألم بالسيارة المارقة، التي غابت عن عينيه، خلف سحابات الغبار والرمال.

* * *

إعلان الحب

قاد «علاء» سيارته الصغيرة، وعقله مشتت بين مئات الأفكار التي تعتصر ذهنه.. مر شهر كامل منذ زارته «شيرويت» في موقع عمله.

ثلاثون يوما وهو يتعذب ويتمزق.. أحس بأنه المسؤول عن كل ما جرى لها.. كانت قبله فتاة قوية واثقة من ذاتها، فتركها كيانا هشا مبعثرا، لا تعرف غير دموع الندم واجترار الأحزان.

لم تفارق عينيه لحظة، صورتها وهي ماثلة أمامه، تطلب صفحه وتهدر دموعها في طلبها. ظل يتعذب ليالي طويلة.. يتقلب فوق فراش السهر والألم. يرى عينيها تطلان عليه من كل ركن.. في حجرته الضيقة.. بين وجوه العمال.. بامتداد الصحراء الشاسعة حوله.

تساءل ألف مرة، لماذا ساقه القدر إليها، لماذا جعلهما

يتلاقيان، ويتصادمان؟ أمن أجل أن يعيد إليها مشاعرها المفقودة ويوقظ قلبها الغافل؟

أمن أجل أن تنكشف له حقيقة «إيناس» قبل زواجها منه؟

أمن أجل أن يتوقف مشروعها لتدمير حي القلعة بأكمله؟

خشي من أن يسبق الأحداث.. أن يكون هناك خطأ ما لا يفهمه..

كان لا يزال يخشى من ألاعيبها.. يخشى أن يكون قلبه قد خدعه، وأن يكون كل ما قامت به تمثيلية لغرض ما، نجحت في إيهامه بها، برغم صدق دموعها ومشاعرها.

قاوم مشاعره أكثر من شهر.. وبعدها عاد لا يحتمل البقاء وسط الصحراء أكثر من ذلك دون أن يكتشف الحقيقة.. وعندما اطمأن إلى أن أخته أدت امتحان الثانوية العامة بكفاءة، حصل على إجازة قصيرة..

كان في حاجة إلى يقين.. إلى شاطئ يرسو إليه قلبه الحائر.. كان يتعذب في تردده لرفضه ما قالته «شيرويت».. وقبوله له.

يتعذب بين مشاعر مضطربة لا نهاية لها.

* * *

اقتربت معالم «القاهرة».. وبدا حي القلعة من بعيد شامخا.. كأنه يتحدى الزمن.

قاد السيارة في اتجاهه وقلبه يدق في عنف.. ها هو موشك على اكتشاف الحقيقة بعد لحظات قليلة.

أوقف السيارة في مدخل الحي واقترب.. شاهد أغلب المساكن مكانها.. عامرة بالحياة لم تمتد لها يد بسوء.. على البعد تجلت له مساحة خالية من الأرض، تجاوز منزل أبيه.. كانت المنازل قد طحنها الزلزال وأوشكت أن تتهدم فوق رؤوس ساكنيها.

واصل اقترابه.. لمح عددا من الحدائق الفيحاء مكان المنازل التي سويت بالأرض.. كأنها رئة جديدة للحي.. كان ذلك ما ينقصه بالفعل. ولم تقع عيناه على أي آلة للبناء أو الهدم في المكان.

وقع بصره على مكان منزل أبيه الراحل.. سوّي المكان بالأرض وأزيلت أنقاضه على نفقة الحي.

شاهد لافتة معلقة على أطراف الأرض الخالية.. كانت اللافتة تحمل اسم المشروع الجديد فوق الأرض: مستشفى ومدرسة مجانيتان يحملان اسم أبيه!

دق قلبه في عنف سريعا.. تصاعدت الدماء لاهثة إلى

وجنيته.. أحس بفرحة طاغية.. كان ذلك آخر ما يفكر فيه..

اندفع إليه عدد من سكان الحي.. عانقوه والدموع في عيونهم.. اختلطت أصواتهم من أجل أن ينقل شكرهم إلى «شيرويت» لأنها تنوي بناء مدرسة ومستشفى مجانية للحي.

تضاعفت فرحته.. أحس بأنه يحلق في آفاق بعيدة.. حلم لم يداعب خياله يوما ما.. شعر أن والده يطل عليه من كل مكان حوله ويبتسم راضيا.

عاد إلى سيارته كالمحموم.. قادها إلى شركة «شيرويت».. اندفع لاهثا يسأل عنها. لم تكن بالشركة.. أخبروه أنها متغيبة عنها منذ أسابيع.

اندفع إليه مدير العقود قائلاً: لقد جئت في وقتك يا باش مهندس، فقد أوشكت أن أسافر الى البحر الأحمر للقائك في أمر مهم.

وتنحنح في بعض الارتباك قبل أن يضيف: لعلك علمت بتغيير خطط مشاريعنا في حي القلعة حسب رغبة «شيرويت»، فكل المنازل التي هدمناها هناك، حولناها إلى حدائق مجانية لسكان الحي، وتنازلنا عن أرضها للحي.. هذا

بالإضافة إلى أننا ننوي بناء مستشفى ومدرسة مجانيتين..
ولكن المشروع الأخير يتوقف على موافقتك ببيع الأرض لنا..
ولدي تفويض كامل من «شيرويت» أن أدفع لك المبلغ الذي تحدده مهما كان.

هتف «علاء» في صوت لاهث:

إنني أريد أن أراها فورا.. يجب أن أقابل «شيرويت» حالاً.

قال مدير العقود منتهزا الفرصة:

- سأقودك إليها في قصر جدتها.. هيا بنا.

وقاد مدير العقود السيارة إلى القصر الفاخر الذي ينم عن ثراء متوارث.

وقفز «علاء» سلالم القصر داخلا وقلبه يدق في عنف.

وتوقف في مدخل قاعة القصر الكبير.. شاهد أمام عينيه الجدة العجوز فوق مقعدها المتحرك، و«شيرويت» قد انحنت إلى جوارها، وراحت تطعمها في تؤدة وحنان، وعينا الجدة تبرقان بالسعادة.

تنبهت «شيرويت» إلى دخوله. ونهضت وعيناها تعكسان مشاعر مختلطة.. بدت ملامح سعادة بالغة فوق وجه «علاء»

وهو يقول لها: لقد جئت توا من شركتك عندما علمت أنك لا تذهبين إليها منذ وقت.

أشارت «شيرويت» إلى جدتها في رقة وأجابته: لن تعوضني الشركة والملايين عن جدتي.. وبقائي إلى جوارها أثمن من كل كنوز العالم.

كبح «علاء» جماح فرحته وهو يشعر أنه أمام إنسانة أخرى مختلفة، وواصل قائلا في انفعال: لقد مررت على حي القلعة.. وشاهدت ما فعلته.. وما تنوين فعله.

بدا عليها خجل عميق وهي تقول:

ـ إن الأمر متوقف عليك في بيع أرض منزل أبيك الراحل لنا وإلا توقف المشروع بأكمله.

صاح «علاء» بفرحة عامرة.

ـ لا.. لن يتوقف أبدا.. سوف تحصلين على الأرض فورا.

قالت:

ـ وأنت ستحصل على المبلغ الذي تحدده مهما كان كبيرا.

اقترب منها.. تعلق بصره بملامحها التي بدت بريئة خالصة من كل شرور العالم وقال:

ـ لست أريد أي مال.. يكفيني أن المستشفي والمدرسة سيحملان اسم أبي.

إن هذا أجمل وأعظم ألف مرة، من كل ما حلمت به.. ولو أن الفكرة خطرت لي قبلا، لنفذتها فورا.

قالت «شيرويت»:

ـ ولكني سأبني المستشفى والمدرسة سواء تبرعت بالأرض مجانا أو تسلمت ثمنها، وأنا أرى أن ثمن الأرض سيفيدك كثيرا لتبدأ حياتك.

أجابها «علاء» في بعض اللوم:

ـ وهل تظنين أنني سأكون أقل مروءة منك، فأقبل مالا مقابل هذا المشروع العظيم الخيري؟

تطلعت إليه في صمت. لم تجد ما تقوله... وهمس «علاء» يقول لها: كم أنت نبيلة.. لم أكن أظن أن قلبك سيتسع لكل هذه المشاعر والأعمال النبيلة. وإنني أعتذر عن هذه التركية التي كنت أطلقها عليك.. وأعترف لك الآن بأنني كنت مخطئا في ذلك.

غضّت بصرها وقالت في ارتباك وخجل بريء:

ـ إن الفضل يعود إليك.

هتف في لهفة:

ـ بل إليك أنت وحدك.. فلم يكن لي من فضل سوى أن أزحت طبقة الجليد الرقيقة عن مشاعرك الحقيقة، وها هي ذي قد ظهرت جلية لكل ذي عين.. سامية.. نبيلة وهأنذا أنقل إليك شكر ومحبة سكان حي القلعة وتقديرهم لكل ما فعلته لأجلهم، وما تنوين فعله أيضا.

وأضاف وعيناه تجوبان عالمها الفاتن: والحق أنني لن أجد الكلمات التي تعبر عن سعادتهم بهذا الموقف الإنساني منك.

ومد اصابعه ليمس أصابعها.. تورد وجهها. تألقت عيناها كنجمتين لامعتين، ولم تحاول أن تبعد أصابعها التي خلت من كل الخواتم الماسية الثمينة.

وهمس «علاء» يقول:

ـ إنني أعتذر عن كل ما قلته لك من قبل.. عن خشونتي وسوء ظني.. وعما قالته أختي أيضا، لقد اعتذرت أنت إلي.. وأنا أيضا مدين لك بالاعتذار.. وهأنذا أقول لك بكل صدق، إنك أعظم وأنبل وأكرم فتاة شاهدتها في حياتي.

توردت ملامح «شيرويت» في سعادة، وقالت في صوت رقيق:

ـ وأنا أيضا لن أخجل من أن أقول لك، بأنك اشجع وأقوى وأنبل شاب قابلته في حياتي.

همس «علاء» يقول لها باسما: ألا تودين الاعتراف بشيء أخير؟

تطلعت إليه في حيرة وارتباك.. فواصل باسما: ذلك الاعتراف الذي بترته في صحراء البحر الأحمر.. وقد أوشكت كلماتك الأخيرة أن تفلت منك.

تخضب وجه «شيرويت» بحمرة خجل قانية.. عضت شفتها السفلى وهي تهرب بعينيها بعيدا.. دق قلبها كقرع الطبول، وبدا كل جزء في جسدها يرتجف.. تمنت لو أنها تختفي عن عينيه.. أحس كأن نظراته تنفذ إلى أعماقها وتقرأ مشاعرها الخفية.

تأملها «علاء» باسما وقال: لعله يليق بي أن أعترف لك أولا.. فأنا أحبك.. أحبك.

تفجرت فرحتها طاغية كالبركان. شهقت لروعة المفاجأة.. واصل «علاء» قائلا:

لقد غزا حبك قلبي وتملكه منذ تبدلت صورتك الحقيقية في قلبي.. ولست أطلب من العالم كله أحداً سواك.

فهل يتسع قلبك لي؟

ارتجفت فرحة غامرة في عيني «شيرويت».. تهدجت أنفاسها، أجابته في صوت يفيض سعادة: كيف تسألني هذا السؤال وأنت قد جعلت مني إنسانة مختلفة.. فصرت أدين لك بأشياء كثيرة رائعة في حياتي.. والآن لا يخجلني أن أعترف لك.. بأنني منذ تلك اللحظة التي واجهتني فيها بقسوة كاشفا لي عن حقيقتي، قد أحسست بمدى ضعفي وهشاشتي.. ومدى احتياجي إليك في الوقت ذاته، فصار قلبي يناديك، ويدفعني الى السعي خلفك آلاف الأميال والسفر وراءك إلى البحر الأحمر، وإن لم يجرؤ لساني على هذا الاعتراف لحظتها، فقد تفجر حبي لك. ولست أخجل الآن من الاعتراف بهذا الحب.

وتشابكت أصابعهما.. ولمعت في عيونهما نظرة سعادة لا حد لها وقد بديا وكأنهما يغيبان عن العالم كله بتلك النظرة.. واستدارا نحو الجدة العجوز كأنما يسألانها المشورة والرأي، فأجابتهما بنظرة باسمة متألقة، كأنها تعلن لهما موافقتها، ومباركتها.

* * *

قلبي يناديك

كانت «شيرويت» سليلة عائلة تركية ثرية استوطنت «مصر» منذ زمن. اعتمدت دائماً على قوة المال، وصارت لا يرد لها طلب..

وكان «علاء» مهندساً شاباً لا مال له ولا نفوذ.. ولكن القدر شاء إلا أن يتلاقى الاثنان في صدام حاد.. وتحدٍّ لا مثيل له.

فكيف تحول الصدام.. الى قلب ينادي؟

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان